# القسم الثاني
# طريق العودة الى المدينة النموذج

# افلاس المدينة الحديثة

## تمهيد

ما من احد ينكر ذاك التقدم الهائل الذي أحرزه الإنسان في جميع المجالات المادية، وبقدر ذاك التقدم المادي، كان ألتقهقر الخلقي والتراجع الروحي للإنسان، لذا كانت وما زالت محصلة الفكر الإنساني، تكاد لا تجدي في تحقيق الهدف البعيد للإنسانية وهو الهدف الذي لا يحققه إلا الإنتصار الروحي للإنسان، فإذا ما كانت حصيلة الإنسان الفكرية قائمة أساساتها على مبادئ أخلاقية وروحانية من العدل والخلق القويم، والأمانة والصدق... فان ذلك، ولا شك، يُبقي الأنتصارات المادية في مركزها الصحيح، الذي يسمح لها بالتألق، وإضفاء السعادة الكاملة على حياة الإنسانية، لذا لا بد أن يكون التقدم المادي للإنسانية، موازيا لتقدمها الروحي، ففي الأخيرة كبح لجموح النفس وما تأمربه من سوء.... وبغير ذلك، لن تؤدي تلك الأنتصارات إلا إلى الأنحدار ، أكثر فأكثر نحو المادة، الخاوية من كل روح، فتكون ساعتها قد فشلت ، الإنسانية ، في شيء وربحت في شيء آخر، ولكن الشيء الذي فشلت فيه ، هو الأهم، وهو الذي جاء الإنسان من أجله، وأما إذا نجح فيما فشل به، فانه ولا شك، لا بد ان ينجح في كل شيءولا بأس ان نوضح أكثر من ذلك، إذ أن نجاح الإنسان في المجال الروحي والأخلاقي والقيّمي، لا بد ان يؤدي إلى نجاح باهر في المجال المادي.... ربما يتأخر بعض الوقت وهو يمزج بين الهدفين، ولكنه سيصل ولا ريب، وبذا يكون قد أحرز نجاحاً في جميع المستويات وهي غايته المنشودة التي خلق من اجلها....

صحيح أن الإنسان أبرز مهارة فائقة وهو يصعد إلى السماء... ولكن مهارته تلك ما جدواها إنْ هي زادته غروراً وصلّفا، بحيث اخذ معه وهو يصعد، وسائل الخراب والدمار، وأحدث أنواع الأسلحة، ليلقي بها على البشرية.... ودون تمييز.... لا يهم من هو الذي فعل ... وما هي المبررات... ولا حتى من هي الضحية التي كانت السبب... المهم هي محصلة ذلك كله..... فذاك يلقي على ذاك، والعكس بالعكس، والنتيجة:

ـ ان الإنسان وصل وتقدم، واحرز الأنتصار، تلو الأنتصار وفي ساعة غروره وغضبه

وثورته، وسلطانه الذي أغراه بالاستبداد كل ذلك يضاف إليه موت ضميره، جعلته يلقي بأحدث وسائل الفتك والتدمير، ليطيح بالكل، وليشبع غروره... طامعاً بما وصل إليه، وبما وصل إليه غيره..... أليس هذا هو صراع المادة والروح؟ بلى.... وللأسف كانت الغلبة للمادة على الروح، نعم، كانت الغلبة لعنفوان المادة على مباديء الخلق وبقايا الضمير، هذا شيء حدث في الحرب العالمية الأولى ومثله في الثانية وها هو يحدث الآن.....

## في التطور العمراني

* والتقدم الذي أحرزه الإنسان في مجال البناء والعمران لايضاهى ولا يقارن مع أي عصر آخر.... ولكن سرعان ما يزول ذاك التقدم بين عشية وضحاها بفعل الفاعلين الذين لا يرون من الحياة إلا بمقدار ضئيل، فقط يكفي لإشباع غرائزهم وتحقيق أطماعهم المادية، وياويل من لا ينضوي تحت لواء المادة التي يعبدون.

ولو أني أرى رأيا آخر في ذاك العمران والذي جلبناه قلباً وقالبا من دول لا تؤمن إلا بالمادة ولا تعترف إلا بمقدار ما تجلبه تلك المباني من أرباح طائلة، وعليه فانها لا تراعي مشاعر المسلمين، وبالطبع لا تماثل البيت الإسلامي الذي كان يساهم في الحفاظ على أخلاقنا وعاداتنا ومبادئنا ففقدنا بذلك، كما فقد أولئك، عنصراً من أعظم عناصر البيت الإسلامي، وهو عدم التطاول على جارك في البنيان ـ أين لنا من ذلك؟؟

العكس هو الذي حصل فلا يقف المرء فينا إلا وعينه في بيت جاره، وشرفة بيته تطل على شرفةبيت جاره، مما يخلق عادات وأخلاقيات هي أقرب إلى عادات وأخلاقيات الغرب الذين فتحوا علينا هذا الباب.... والقصة في ذلك يفهمها كل عاقل فينا، إذ الهدف منها هو الربح لا أكثر ... والاستغلال لأكبر قدر من البشر وعلى قطعة صغيرة من الأرض .... وليفعل الناس بعد ذلك ما يفعلون بعكس البيت الإسلامي الذي كان يشعر فيه الإنسان بكامل الحرية والسعادة والاطمئنان يشاركه في ذلك أولاده وأحفاده والوسط الذي يعيش فيه، فالتقدم الذي حصل في مجال البناء والعمران لا شك أنه تقدم كمي وكل العوامل التي دعت إلى ذاك التقدم كانت عوامل مادية بحتة، لم تقصد قط تحسين أحوال الناس النفسية أو الروحية، فغالباً ما تخضع تلك، لمساويء الإيجار والاستئجار وما يتبعها من مساويء أخرى وعلى ذلك إذا ما تفحصنا الأمر جيداً للاحظنا أن أكثرها بني وصمم على اساسات مادية، وفر في التكاليف ورداءة المواد، ارتجالية التصميم فالمهندس لا يهمه العامل النفسي

للساكن بقدر ما يهمه أن ينجز أكبر عدد من التصاميم والخرائط ليحقق وفراً مادياً وربحاً غزيراً والمالك هو كذلك لا يراعي من ذلك إلا الذي يحقق له أرباحاً طائلة، وبأقل التكاليف، حتى ولو كان ذلك على حساب المواد المستخدمة... والساكن نفسه حاله السلبي لا يسمح له بالوقوف جيدا عند هذه الأمور... بل يقبل بها طائعاً مختاراً لأنه يرضى بأي شيء يقيه، وأسرته، حر الصيف وبرد الشتاء ، لأنه غير قادر أصلاً على ولوج هذا الباب، فهو لا يستطيع أن يشيد البيت الذي يريد وبالكيفية التي تحقق له ولعياله رغد العيش وراحة البال، فلا الأرض قادر على شرائها ولا المواد هو قادر على جلبها ورغد العيش، قطعا لا يعني أن يحصل على بيت من حجارة ونوافذ ومواد بقدر ما يعني الحصول على بيت صحي يحقق له، باديء ذي بدء، الاستقرار النفسي... ولن يحقق له ذلك، المسكن الذي يستأجره أينما يكون موقعه وكيفما كانت بيئته....

والذي بني أصلا من أجل الربح والاستغلال، وعلى هذا يبقى التقدم العمراني لصالح فئة بسيطة من الأغنياء والموسرين الذين هم بالتالي يستغلون حاجة الناس. فيتحول المجتمع من تلقاء نفسه إلى مُسْتَغِل ومُسْتَغَل ويستمر الصراع بينهما إلى الأبد، وبالتالي نعيش حياتنا المادية تلك، ورغم ذلك نصفها بالتقدم والحضارة وازدياد البناء والعمران... اذ ليس المهم ان نبني بيوتا من حجارة أو طين لكن المهم ان نسكن تلك البيوت ونسعد بها ونطمئن وللأسف، نقل إلينا كل ذلك من دول مغرقة في المادية والإستغلال إذ رغم الأراضي الشاسعة والواسعة التي يمتاز بها عالمنا العربي خاصة وعالمنا الإسلامي عامة، قلما نجد لكل فرد منا فرصة للبناء والاعمار ولو لمسكن صحي واحد، لأن البقعة الصالحة للبناء خصصت للأغنياء والموسرين أي لفئة قليلة، قادرة على التحكم في أسعار الأرض والمواد، وبالتالي يقبل الفرد هذه الأمور، وهو كاره لها، حتى ولو حقق شيئا بالأجرة، ولو بسيطة، وحصوله على ذلك البيت، قطعاً ، لا يحقق له أهدافاً صحية... رغم مادية البيت وشكله واسمه، بيتاً صحياً، لأن هدفه أولاً وأخيراً الهدوء والاستقرار النفسي، وقطعاً ذلك غير موجود، في مسكن لم يختر موقعه أو بيئته أو مواده، ولا حتى اتجاه نوافذه أو أبوابه وغالباً، ذلك ما يبعده عن أقاربه أو يسهم في قطع أواصر رحمه، وقد يساعد في شتات أسرته، وغربة أولاده وبهذاخسر الجانب الروحي لمسكنه... ورغم هذا الخسران المبين، ومثله، الذي يحدث في كل منحى من مناحي حياتنا ترانا مطأطي الرؤوس... لا نفيق.

## في التطور الثقافي

والتطور الثقافي الذي حصل فيه كما يراه البعض «البعض الذي يراه» وكأن الإنسان قد وصل إلى غايته بل إلى أعلى درجات سلم الرقي إن ذاك التقدم الهائل في عين الناظر المتبصر بأمور الحياة ليس إلا تقدما ماديا لخدمة أهداف مادية، وعلى هذا فهو تقدم ظاهري خاوٍ من كل روح يؤخر ولا يقدم في المدى البعيد.

فالبرج الثقافي الهش البنيان.... والخاوي من كل روح ليس إلا زخرفاً ظاهرياً.... يزين للإنسان ما يشتهي ويروّج لما يريد، فيقبل على ترف الحياة وزينتها بنهم وشراهة لا تعرف الحدود...نعم، كل الأطر الثقافية، تساهم في كثير من الأحيان بجشع الإنسان واستغلاليته وتحكمه برقاب الآخرين، وتساعد أيضاً بتقطيع أوصال المجتمع وتخلق منه طبقات لا يمكن الجمع بينها وهو ما ساد الشعوب ويسودها ما بين كل ديانة وأخرى... وها هو الحال نحن عليه، اذ هناك طبقة اسمها طبقة الرجعيين «المتدينيين» أو طبة رجال الدين وهناك طبقة أخرى اسمها طبقة التجار والاستغلال والرأسماليين «المترفين» وهناك طبقة ثالثة اسمها طبقة السلطة والحاشية، وطبقة أخيرة وهي المسحوقين «الكادحين» وعلى كل طبقة ان ترضى بقدرها ، ولا تغير من حالها شيئاً هكذا جاءتنا هذه القوالب العصرية من أكبر الدول تقدما وعصرية.... وعلينا أن نقبل بذلك لأنها هي الصحيح وغيرها الخطأ، هكذا تصور لنا وسائل الإعلام والثقافة صباح مساء دون أن تكل أو تمل... حتى البرامج التي كانت تقدمها الدول للإرشاد، تنازلت عنها إلى مؤسسات خاصة وشركات استغلالية لا هم لها ولا هدف، الا الاستغلال والربح الوفير وليضرب بعرض الحائط كل ما يمت إلى الحضارة الإسلامية بصلة من اخلاق وقيم، وعدل، ومساواة، وحرية، إذ بالله عليكم، ماذا تتوقعون من أفلام أوروبا وأمريكا والصين غير التركيزعلى المال والتجارة والجاسوسية، والبوليسية، وأفلام الدعارة... كل ذلك حضر إلى عالمنا، وبعد ذلك ننعت انفسنا بالإسلام وحتى إن فكرت دولة بمقاطعة ذلك الذي يحدث لا بد أن تلصق بها شتى التسميات تارة بالرجعية وأخرى بالإلحاد.... من ذلك، نرى أن ثقافة هذا العصر هي من طينة هذا العصر المادي فبدلا من تطوير وسائل الإعلام التي تخاطب الروح والنفس والقيم والأخلاق لتخفيف حدة القتل والجرائم والحروب التي لا تتوقف دقيقة واحدة، بدل ذلك... نزيد الطين بلة والنار أواراً فتبقى النفس الإنسانية متشائمة ، ملتاعة مظلومة، أو مترفة طاغية.

هل أسهمت هذه الثقافة العصرية المتحضرة بإيجاد عقار ناجح أو وسيلة مفيدة لتهدئة الخواطر وكبح هذا الجموح وإيقاف هذا التهور المادي، أو هذا الأنحطاط الخلقي؟؟..

ولكن الذي نراه هو العكس.... فبدل أن يأخذ هذا المنبر على عاتقه مهمة التخاطب المباشر مع روح الإنسان، التي هي الجزء الثاني من الإنسان... وهو أهم الأجزاء، اذ ما قيمة الإنسان حين تخرج منه الروح...؟

لا شيء على الإطلاق وعلى هذا استمر في تغذية الجسد باذلا له ما يملك، وواضعاً تحت تصرفه العقل وما ينتج، ناسيا ان العقل ليس الا مغذيا للجسد كما هو كذلك بالنسبة للروح....

أما نحن أصحاب الرسالة القرآنية... والذي يفترض فينا أن نكون خير أمة أخرجت للناس، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر بكل وسائل إعلامنا أصبحنا في حال لا نحسد عليها فبدل أن نقود الإنسانية نحو المثل والقيم والأخلاق والمبادئ.... بدل ذلك قادتنا الأمم وجرفتنا إلى تيارها الإلحادي، واستهوت تلك الأمم مناظرنا ونحن نقاد - وبمناظر مزرية، إلى مستنقعاتها ومنابر فسادها... فبعد أن انتصرت وسائل إعلامها علينا نفسيا جرتنا من الأعناق طائعين مختارين إلى باراتها ، ومواخيرها اللا أخلاقية حتى أصبحنا لا نستحي ونحن نصرف الملايين تارة على الأفلام الجنسية التي تمتع العيون.... وتارة أخرى ونحن نطبق ذلك ونفعل فعله وراء الستائر حين تسنح لنا فرصة العمر بزيارة تلك المواخير حتى لو كانت تلك الزيارة في مهمة رسمية ولتذهب القيّم والأخلاق إلى الجحيم... هذا الذي يحدث في الثقافة والإعلام... وأسوأ منه في البناء والعمران... وقس عليهما في التكنلوجيا والنيترون... وهو ما يغريك ظاهره ويدميك باطنه...

## ازمة الحضارة

من ذلك الذي سقناه آنفا، والذي كان على سبيل المثال.. لا الحصر .. نلمس الخواء الروحي في ثنايا الحضارة الجديدة، كلا بل في أعماق كيانها أو قل في مقوماتها الأساسية ، مما يبعث على الأسى والحسرة لأنها بذلك تحمل في طياتها أسباب فنائها، وإن كانت تلك الأسباب في طور الجنين الذي لم يتشكل بعد، ولكن لا بد، له يوماً ما ، أن يتشكل ومن ثم يترعرع لينمو في رحم هذه الحضارة الهشة، ليأتي اليوم الذي يستطيع فيه تقويض أركانها وما نقوله ليس محض خيال أو افتراءات لا أساس لها أو هي مجرد نزوة عابرة صادرة عن

تعصب أخرق أو رجعي متدين (كما يقال أحيانا).... لا بل، آية ذلك واضحة وضوح الشمس في الحقائق التاريخية التي دونتها الأقلام في أمهات الكتب التاريخية.... وما الحرب العالمية الأولى والثانية إلا دليل ساطع على ما نقول، لا يقبل الجدل أو حتى ذرة من الشك، والمتدبر بآيات القرآن يلمس ذلك ، فكل العقوبات التي طالت الأمم السابقة والتي يخبرنا بها القرآن لم تأت إلا بعد فساد مترفيها وطغيانهم وبعد انتصار العامل المادي النفعي على العامل الروحي لدى الإنسان ولكن العقوبات وأشكالها هي التي تختلف من أمة إلى أخرى، وأما في عصرنا الحديث ولأن الوحي قد توقف عن النزول ولأن الأنبياء والمعجزات لا مكان لها في هذا العصر، فإن هناك بديلا آخر عن ذلك كله وهو يناسب هذا الجيل ، الذي نال قسطا كبيراً من العلم والرقي «المادي» ووصل إلى أسبابها ما لم تصل أمم أخرى وأجيال من قبل لذا كانت الحروب بمثابة عقاب الأمم الحديثة وهذه الحروب العالمية الجديدة قطعاً الجميع يعرف مداها ولا أحسن من تشبيهها بالزلازل والبراكين... والتدمير الشامل الذي كان يلحق الأمم الملحدة في زمن الأنبياء .... «فجعلنا عاليها سافلها».... «فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية» ما الفرق بين ذلك وبين الحروب التي لا تبقي ولا تذر والتي يضيع ضحيتها أمم بكاملها.... أمم تنام آخر الليل... وقد تصحو... وقد لا تصحو وإن صحت ، فهي لا تصحو إلا على أنصاف أجسام وبقايا حضارة وعمارات ركام، لا بفعل نقمة الهية أو زلزال بل بفعل حضارة وتكنولوجيا العصر الذرية... وقبل ذلك حدث مع قوم عاد وثمود.... وغيرهم.... إنه عقاب السماء ولكن هذه المرة، بأيدي أهل الأرض .... نظير طغيانهم.

فبالأمس انتهت ألمانيا وإيطاليا واليابان وهاهي بريطانيا العظمى ينخر جسدها السوس وغداً أمريكا... الخ والذي يجر هذه الأجيال إلى حافة الهاوية، هو التقدم الحضاري الهش الذي يخلو من أي خلق وازع ولا حتى ضمير رادع فإذا ما تتبعنا الأثر لنعرف أسباب ذلك نرى أن الذي يتقدم بهذا الاتجاه تنقصه أهلية القيادة الحضارية أو المسؤولية الحضارية الملتزمة تجاه الشعوب، لأنه يجرها أو يقودها من حيث لا يدري إلى منحدر سحيق خال من القيم والمباديء والأخلاق ومن ثم الهاوية ولا أرى أمة تصلح لهذه القيادة غير الأمة العربية المسلمة لأن حضارة أولئك تنقصها حضارة هؤلاء وحضارة أولئك تجر إلى منزلق مادي نفعي استغلالي وطغياني وحضارة هؤلاء تجمع بين المادية التي تخاطب الجسد والروحانية التي تخاطب الروح، أما أن نخاطب الجسد ونلبي مطالبه ونسخر العقل الذي هو هبة من الله إلى

الإنسان لتحقيق تلك المطالب ليس الا... فإن كل ذلك يتم علي حساب الروح التي هي أهم عنصر في بقاء الإنسان على قيد الحياة... ولا شك أن ذلك طغيان مادي لا مبرر له.... أو لنقل لا بد من إيقافه والحد من سطوته ولا يتم ذلك إلا بالمباديء.... والقيم... والسلوك الأخلاقي... الذي يشكل الضميرالرادع والخلق الوازع الذي ينبه الإنسانية إلى مواقع الزلل والهلاك فيبعدها عنه... ويرشدها إلى مواطن الهدى والاستقامة فيقربها منه. اذ لا يعقل أن نضع كيان الحضارة برمته وجهد الإنسان تحت طائلة المعاملة بالمثل... وكفى.... فإن ذلك لن يؤدي إلا إلى ضياع الحق والحقيقة بين ممارسات القوي واستهتاره وتهاون الضعيف واستسلامه... فكيان الإنسانية وبنيانها الحضاري لا يجب أن يبقى تحت رحمة هذه القاعدة المادية الهشة مما يعرض ذلك الكيان وذاك البنيان للعبث والاستهتار وسوء النتائج وهذا يعني أن لا بد من أن تترسخ حضارة الإنسان وتبني على أساس متين من الحق والعدل يحوطها سياج قوي من الخلق والضمير لا سياج هش هزيل مهدد بالغرور والاستهتار، وانعدام المسؤولية....

## المسؤلية الحضارية

* ولكي تأمن الأمم على حضارتها المادية وتقدمها العلمي من العبث والتدمير أو الأنحراف وسوء التصرف ولكي تضمن حيويتها وتألقها وبقاءها... نعم لكي تضمن ذلك كله، لا بد أن تتصدر القيادة الحضارية بهذا العالم، الأمة ذات الخلق والدين لا بل ذات الجسد والروح، ولا أرى أ حسن من الأمة العربية المسلمة للاضطلاع بهذا الدور... لأنها الأمة التي تملك هذه الصفات وهي الأمة التي أوكلت لها تلك المهمة بإشارة من السماء رغم كبواتها من حين لآخر فهي خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر تأمر بالعلم والتعلم الذي أساساته الخلق والدين والعدل والإحسان والشورى والتشاور والأمانة والصدق.... الخ.

والقرآن الذي هو الكتاب السماوي لهذه الأمة ودستورها الأبدي حافل بهذه القيم وتلك المباديء فهو خير نبراس لمن أراد أن يهتدي بهدية أو يستظل بظله.

وهذه الأمة أيضاً أمرت بأن تنهى عن المنكر وما المنكر الذي يمارس جهاراً نهاراً في ثناياً هذه الأمة المسلمة وفي شوارعها وازقتها واحيائها كل ذلك لا يدل قطعاً على فساد شريعتها أو طغيان أحكامها وإنما يدل على انحراف الإنسان في هذه المجتمعات عن جادة الصواب

سالكاً في ذلك آثار الملحدين ومتتبعاً لخطواتهم وأما هي فقد أمرت أن تنهي وتبتعد عن هذه المنكرات وتلك المفاسد التي حتما تقود أصحابها إلى القتل والسرقة والكذب، والخداع والمنكر... والربا والاستغلال.... إلى غير ذلك من الموبقات التي وفدت الينا من الأمم الأخرى.... منها ما هو عن قصد لإفساد هذه الأمة وإسقاطها وتسلم القيادة منها... ومنها ما استشرى خلال مجتمعاتنا كما تستشري النار في الهشيم عند أول شرارة... لذا نحن ملزمون ـ المخلصين منا ـ شيبا وشبابا لإيقاد شعلة الإيمان في النفوس من جديد لتصحو هذه الأمة من غفوتها... وتنفض الغبار الذي علق بقيّمها وعاداتها وتقاليدها الإسلامية لتقود العالم نحو بر الأمان.... فهي وحدها القادرة على أن تحمل سلاح الإيمان بيد.... وسلاح العلم باليد الأخرى.... وبهذين السلاحين يمكنها أن تقود العالم إلى آفاق رحبةمليئة بالأمن والأمان والرفعة والسؤدد لا إلى حرب عالمية ثالثة.... ولكي تقوم بهذا الدور الصعب لا بد أن تجند طاقتها غير المحدودة من أجل تحقيق وحدتها، باديء ذي بدء، لتصحو وهي متراصة الصفوف عظيمة الهيكل راسخة البنيان قوية الجسد نقية الروح نعم لكي تقوم بهذا الدور الصعب لا بد من وقفة جادة وحازمة من أجل تصحيح الانحرافات المتراكمة عبر القرون المتتالية في مختلف المجالات والصعد ومن ثم فرز ما هو حلال وما هو حرام وإعطاء كل ذي حق حقه ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، وتنظيف مناحي العمل المختلفة من الرشوة والمحسوبية إلى آخر التصرفات اليومية والتركيز في المجالات العلمية والثقافية على إنشاء المعامل والمختبرات لا على المواد الاستهلاكية، وصرف الأموال على كل ما يحقق ذلك من أهداف.

ولا بأس أن نتقشف عشرات السنين في سبيل التقدم الحقيقي على أن نبقى عالة على الأمم ، مئات السنين، حتى ولو شعرنا بلذة المادة وترفها وهي التي ستزول إن عاجلاً أو آجلاً وأما الذي يبقى ويدوم فهو القيم الحضارية التي ينظمها كيان أخلاقي يرتوي بمباديء العلم والإيمان، وبذلك يخلق الإنسان المؤمن والمعتقد بالله وحده لا شريك له ، في العبادة لا يعبد إلا الله متجاوزين بذلك كل الترهات التي يخلقها المنحرفين عن جادة الصواب ساعتها لا ننهل إلا من كتاب الله العظيم وسنة نبيه الصحيحة ففيهما العون والنجاة في كل مناحي الحياة ولا أحسن أن يقترن التقدم بالإيمان والتوحيد فيصبح الخوف من الله عن يقين والإيمان بالله والتوحيد عن يقين وحب الله أيضاً عن يقين. وهذا لا يتحقق إلا بمعايير دستور الله العظيم.

# طريق الانتصار والانبعاث الحضاري

## القرآن يرسم معادلة النصر الابدية

من قال إن حقائق النصر ومسلماته قد وضعها فلان هنا أو علنتان هناك؟! من قال ذلك، لا يمكن أن يوصف إلا بضحالة الفكر وتهافت الرأي أو انحراف الثقافة.

إن الحضارة الإسلامية العريقة التي نهل من معينها الغرب في أثر الشرق فكراً وسلوكاً، لم تحرز الاهتمام من الغير وتلك المكانة إلا لأسباب ومبررات، وتلك الأسباب هي قطعاً لما تنطوي عليه تلك الحضارة من مبادئ وأسس ومثاليات في كل مناحي الحياة ، في الأخلاق، كانت نعم المعين، وفي الفكر كانت نعم المنبع الصافي العريق، في العلوم بشتى أنواعها وفي الأدب بشتى فنونه.

ولا نريد أن نبتعد كثيراً عن الموضوع الذي نحن بصدده، فالذي يجب أن نقوله بهذا الصدد أن طرائق النصر والوصول إليه قبل أن يكتب فيه الغرب المؤلفات النظرية، كان موجوداً أصلاً في ثنايا حضارتنا... نظريات وتطبيق، بل كانت معادلة النصر المثالية مخطوطة في القرآن منذ أربعة عشر قرناً... ولم تكن تلك الأُسس والحقائق مطروحة للدرس والتطبيق لبعض من الناس دون غيرهم ولكن كانت مطروحة للكل وسيما المظلومين في جميع بقاع العالم.. ولا غرو اذ لم يأت الإسلام أصلاً إلا لنجدة أولئك المظلومين أو المستضعفين أينما كانوا وفي أي وقت كان....

ولكن، لا يشك أحد في أن القرآن حينما أورد ذلك، ما كان ليورده إلا لمن يهتدي بهديه، ويقتدي بفكره ويسير على خطاه وبالتالي فإن أولئك هم جبهة الحق الذين وعدهم الله بنصر من عنده والله لا يخلف الميعاد....

والحقيقة.... وإن جاء القرآن بطريقين لا ثالث لهما يوصلان إلى تحقيق الانتصار على قوى الشر والطغيان إلا أنه ركز على طريق وسبيل واحد يجمع بين جميع العناصر المؤدية إلى حسم الصراع لصالح قوى الحق والحرية.... والطريق الأول هو الذي يحسم بعون

سماوي مباشر، والطريق الثاني يحسمه الإنسان ، المؤمن ، وملامح الطريق الثاني فيها شيء من ملامح الأول ، والفرق هو أن الأول جاء لزمن وقوم معينين وبذواتهم أما الثاني .... فقد جاء لكل زمان ومكان.

## الطريق الأول

والطريق الذي أوضحه القرآن بكثير من التفصيل والأمثلة هو طريق المعجزة السماوية التي ما أن تحل بقوى الشر والطغيان حتى تحيلهم إلى ما يشبه ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ وهذا الطريق لا يعول كثيراً على العنصر المادي أو المعادلة المادية في تحقيق النصر، وجل اعتماده أو كله يعتمد على العون والمدد السماوي ولا بأس هنا إن ذكرنا أمثلة من الأقوام التي طغت واستبدت في الأرض وعاثت فيها فساداً وإفساداً وكان مصيرها في النهاية الهلاك، محققين بذلك قوله تعالي ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل٦٩] ، فالبعض منهم ما زالت آثارهم باقية، ولعل الخبر اليقين بشأن تلك الآثار يعلمها ، أكثر منا المتخصصون بشؤون الآثار وأما نحن هنا لسنا إلا باحثين عن حقيقتهم من خلال القرآن.... وحقيقتنا إن قورنت مع حقيقة أولئك فلا شك أن الحق اليقين سيدخل القلوب المترددة ويجتاح بنفس القدر القلوب الملحدة إذ ساعتها ستدرك أن هذا القرآن بعيد عن صنع البشر، فآياته وآيات الكون واحده كيف لا ومصدر هذا وذاك واحد ، لا بل حقيقة هذا وذاك أيضاً واحدة....

فمثلاً قوم عاد وثمود: قال تعالى:

﴿وَعَاداً وَثَمُودَاً وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت٣٨] اما قارون وفرعون ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ [العنكبوت٣٩ ].

وأما النتيجة في آخر الأمر فكانت...

﴿فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

[العنكبوت٤٠ ].

وهكذا كان عقاب تلك الأقوام لما طغت في الأرض وعاثت فيها فساداً.

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ .. ﴿ وأَمَّا عادٌ فَأُهلِكُواْ بِرِيحٍ صَرصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾.

وأما قارون ﴿فَخَسَفنَا بِهِ وَبِدارِهِ الأَرضَ﴾

وأما فرعون فقد استكبر وطغى في الأرض فكان عقابه شديداً ﴿فَأَخَذنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذنَاهُم فِي اليَمِّ فَانظُر كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص٤٠].

وهكذا كان مصيره ومصير جنوده الغرق لقاء طغيانهم وفسادهم في الأرض ، وأما قوم شعيب ﴿وَإِلَى مَديَنَ أَخَاهُم شُعَيباً فَقَالَ يَا قَومِ اعبُدُواْ اللَّهَ وَارجُواْ اليَومَ الأَخِرَ وَلاَ تَعثَوا فِي الأَرضِ مُفسِدِينَ﴾ [العنكبوت٣٦] ، ولما هم ، أيضاً طغوا في الأرض وكذبوه بما جاء كان العقاب الحاسم «فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين».

وأما قوم لوط: ﴿إِذ قَالَ لَهُم أَخُوهُم لُوطٌ أَلاَ تَتَّقُون إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء١٦١-١٦٢]، وطبعاً ﴿كَذَّبَت قَومُ لُوطٍ المُرسَلِينَ﴾ [آية١٦٠] ولما افسدوا في الأرض قال لوط : ﴿.... رَبِّ انصُرنِي عَلَى القَومِ المُفسِدِينَ﴾ ، وفعلاً كان ﴿فَأَخَذَتهُم الصَّيحَةُ مُشرِقِينَ ، فَجَعَلنَا عَالِيهَا سَافِلَهَا وَأَمطَرنَا عَلَيهِم حِجَارَةً مِن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر٧٣-٧٤] ، ومثل ذلك حصل مع إبراهيم وقومه وغيرهم وغيرهم كثير ولكن كان العقاب في كل مرة يختلف عن سابقه فتعددت الأقوام وتعدد العقاب إلا أن الخلق واحد والعقاب أيضاً نتيجته واحدة وهي نصرة الحق كيف لا ومصدرهما واحد.....

وما ذكر ذلك إلا أمثلة لقوم يعقلون ، فمسيرة الإنسان طويلة وشاقة وأن صراع الحق والباطل أيضاً طويل وشاق وأما نتيجة الصراع في النهاية هي لصالح قوى الحق لأنها مؤيدة بنصر الله... ذلك وعد، والله لا يخلف وعده صحيح أن ذلك كان نصراً من الله لأنبيائه ولكن الصحيح أيضاً أنه كان لنصرة الحق كائناً من كان حامل لوائه وما أولئك إلا أمثلة قال تعالى: ﴿وَتِلكَ الأَمثَالُ نَضرِبُهَا لِلنَّاسِ... وَمَا يَعقِلُهَا إِلاَّ العَالِمُونَ﴾.

## الطريق الثاني

هذا شيء من أشياء ، بل هذا درس من دروس ، وعبرة واحدة من بين كثير من العبر، التي وردت بجلية ووضوح في ثنايا صفحات القرآن ، لا بل في كل صفحة إن لم يكن في كل آية وكلها توضح أن نهاية الصراع، دائماً، ونتائجه هي لصالح عناصر الحق والعدل والحرية.

ورب سائل يسأل فيقول: أين نحن من أولئك المؤمنين المخلصين «الرسل»؟؟ فمنهم الذي كان على صلة وثيقة بالرب يطلب ساعة يشاء ويأتيه التنفيذ ، أيضاً ساعة يشاء «بإذن الله» وبالمدد الصاعق الماحق الذي لا يبقي ولا يذر ومنهم الذي يحمل قوة وعظمة الرب بين يديه يطلقها ساعة يشاء فتحيل أنصار الباطل إلى الحقيقة «فيلقى السحرة ساجدين» ويؤمنون برب العالمين ، لأنهم يرون الحقيقة رأي العين.

وأما نحن في هذا الزمان، ما الذي بأيدينا من قوة نطلقها ساعة نشاء لنحيل دعاة الكفر والشرك إلى شذر مذر كما هو حالهم المحتوم ، فيما سلف....

نعم من هذا السؤال يمكننا أن نستبين الطريق الثاني لتحقيق الأنتصار إنه الطريق الذي ما أن سار عليه محمد بن عبد الله حتى تحولت قوى الشر والطغيان إلى شراذم مبعثرة هنا وهناك... كان ذلك في سنين معدودة.

صحيح أن الوحي الالهي قد انقطع مدده السماوي عن أهل الأرض ولكن الصحيح أيضاً أن هذا الأنقطاع لا يعني أن السماء قد نبذت الأرض أو تخلت عنها ، حاشا لله أن يكون ذلك ولكن الأمانة الموجودة على ظهر الأرض ما زالت هي هي لم تتغير وما زالت باقية محفوظة كما هي بنقاطها وحروفها وآياتها وسوّرها إن لم يكن في بطون المصاحف فهي في صدور العالمين إنها نفس الكلمات والخطط التي جاء بها الوحي من السماء ليلقنها لأهل الأرض ، لا يهم من هو المتلقي رسول كان أو أي انسان، إنها خطى وخطط وخطوط عريضة لا بل هي مباديء وقِيَم.... في الحق والعدل والحرية والأنتصار ما أن يتمسك بها الإنسان فلن يضل كما لم يضل الذين تمسكوا بها من قبل، أما اليوم فالتجربة موجودة ، والمثال كائن ، والحقيقة ناصعة والنتائج هي أيضاً ناصعة للقاصي والداني ، ولحسن الحظ لا ينكرها أحد، وما دام الأمر كذلك دعونا نتبين الأسس السليمة ، الواجب معرفتها للوصول إلى نصرة الحق بعد أن ساد الباطل هذا الزمن الطويل...

وللحق إن جميع الأساسات والعناصر المثالية المؤدية للأنتصار تركز جل اعتمادها على الإنسان فهو المنوط بالمهمة أولاً وآخراً ، لأن زمن المعجزات المادية ، كما ذكرنا، قد ولّى وانقضى وتبقى المعادلة الإنسانية المثالية لتحقيق الأنتصار ولن نسلك سبيلاً وعراً في هذا السبيل، لا بل ، سنسلك أقصر الطرق وأكثرها نجاعة مهتدين بهدي القرآن متمثلين أمامنا وحي السماء، حين باشرت بتلقين أهل الأرض تلك الأسس وتلك الأساسات التي من بينها

## أساسات العلم والدين:

وهي أساسات تجمع بين مقتضيات المادة والروح وهذه إن تحققت وتأكدت في المجتمع، أي مجتمع ، فلا بد أن يتفرع عنها أساسات أخرى ، من مثل الوحدة، وحدة الأمة، والحرية، حرية الفرد والمجتمع ، وكلها تمثل عناصر القوة في أي مجتمع كان وهي بمثابة عناصر أساسية في البناء الحضاري لكل أمة ، وعليه سنعالج في الصفحات القادمة هذه الأساسات وأهمها ، لا بل ، أولها الأساس الديني أو البعد الديني من المعادلة الأساسية معادلة الأنتصار الحضاري الكوني.

## أولاً : الدين والحرية

إن أول أهدافنا من هذه الابحاث أن تتعمق جذور الدين في المجتمع لتعود للإنسان حقوقه وحريته ، هذا الذي نبغيه، ونرجو له أن يسود في هذا الزمن المليء بالتناقضات، الذي اضفى على المادة وغرورها، هيمنة إلى حد الافراط، سمحت للإنسان أن يستعبد اخاه الإنسان حتى وصل هذا الاستعباد إلى درجة الوثنية والإشراك ولكنه إشراك من نوع عصري أذنت به المدينة الحديثة التي وان اكتست زيا عصريا إلا أنها مغرقة في الوثنية، شأنها في ذلك شأن الوثنية التي سادت قبيل نزول القرآن وبـزوغ شمس الاسلام، أنها الوثنية الحديثة ذاتها الوثنية القديمة، الفرق ، فقط في الزي والأسلوب، ففي الوثنية المسيحية التي سادت أوروبا في ذاك الزمان، طغت المادة على حياة الناس، واكتست كل المظاهر الحياتية الأسلوب والإتجاه المادي البحت ، مما أدى إلى تراجع القيم والأخلاق.

وكان ذلك بمثابة ثورة مضادة للديانة المسيحية «والكنيسة» وكان التبرير أن الكنيسة غالت في الدين وبدل أن تحرر الإنسان وضعت القيود والعراقيل على كل مظاهر الحياة...

وكان ذلك انحرافاً منها عن جادة الصواب ، وعن الهدف الذي جاءت من أجله... وها هي تتكرر المأساة من جديد، والنتائج التي نحصدها هي فصل الدين عن الإنسان والمجتمع.... وهو الذي حدث حين انحرفت الكنيسة والرهبان عن الخط المرسوم... مما أدى إلى التمرد والثورة على الكنيسة ومن ثم على الدين، لأن الناس ضاقت ذرعا بتلك الديانة وبأولئك الرهبان.... والحقيقة أن الخطأ والأنحراف ليس من الديانة ولكن من القائمين عليها.... وهم الرهبان والوسطاء والمشعوذين الذين استغلوا الدين لتنفيذ مأربهم ولتنمية مصالحهم، حتى أصبحوا، هم أول أوثان ذاك الزمان، لأنهم فصلوا الناس عن المعبود الحقيقي

الذي يجب أن يتجه إليه الإنسان مباشرة ودون وسيط، أما هم فقد جعلوا من انفسهم وسطاء ليقربو الناس إلى الله زلفى... كل ذلك أدى إلى فصل الدين نهائياً عن الدنيا.... وطبعاً أدى ذلك الفصل إلى طغيان المادة وانتصارها على كل القيم والمباديء بسبب غياب الدين... فانحرف الناس عن جادة الصواب ولم يراقبوا الله في أعمالهم ولا سلوكهم، لا عند الأكل... ولا عند الشراب، ولا عند المأوى ولا عند الخطأ ولا حتى عند العقاب، وذهبوا مذاهب شتى في هذا السبيل، حتى وضعوا القوانين المادية التي لا تخدم إلا مصالح طبقة واحدة من المجتمع وتتناسى حقوق وواجبات الآخرين مما أدى إلى شيوع الاستغلال والاضطهاد والاحتكار وتكريس كل الأوضاع الفاسدة المنافية للأخلاق والقيم وعلى هذا كانت الرؤى مادية بحتة خالية من أي روح، أغرقتنا جميعاً، وما زالت تغرقنا في مظاهر شتى من الوثنية وعلى رأسها وثنية المادة والشهوة والسلطان وتلقفنا تلك المظاهر الوثنية بيسر وسهولة... كان ذلك أبان فترة الأنحطاط والاستعمار وللأسف ورثنا هذه التركة المثقلة باعباء المادة والاستغلال واستعباد الإنسان لأخيه الإنسان ، فضاعت القيم والمباديء والأخلاق... كيف لا والدين قد أخرج كلية من حلبة الصراع، والدين لا يأمر إلا بالقيم والمباديء والأخلاق التي توصل إلى السعادة في الدنيا والآخرة، وتحد من شطط الإنسان وتوقفه عند حده... الذي رسم له في أحسن الكتب تشريعاً، فطلب منه أن يتذكر الله... وهو يأكل «الحلال والحرام» ويتذكر الله وهو يشرب... ويتذكر الله وهو يعمل، ولا يعبد إلا الله، حين يتوجه للعبادة.... الخ ولا يتأتى ذلك ثانية إلا إذا دخل الدين من جديد إلى حلبة الصراع ليحسم الأمور لا لصالح الإنسان في المدى البعيد ولكن لصالح الرب الذي لا معبود سواه. وما عداه فهي الوثنية.

نعم هذا الذي نبغي ونرجو له أن يسود نبغي أن يتآلف الدين والدولة... وأن يوقف هذا الأنفصام بينهما والذي جاءنا مع المبشرين الذين فتحوا بلادنا للاستعمار والاستعباد لا للتقدم والتعمير «كما يقولون» أو إصلاح الحال..

فإذا عاد الدين إلى مرافق الدولة، لا بد أن يخرج الاستغلال منها، وتنتهي عبودية الإنسان للإنسان الذي هو مثله....

وإذا ما دخل الدين فلا بد أن تخرج أساسات الديكتاتورية وتنمحي عبودية الأفراد للفرد الواحد... أي تتحقق حرية الإنسان وإذا ما دخل الدين إلى المساجد فلا بد أن تخرج منها بقايا المادة... وترهات المشعوذين ويتحرر فكر الإنسان من القيود والأساطير ويطلق له

العنان لأن يتأمل ويفكر في ملكوت السماوات والأرض دون قيد أو شرط وإذا ما دخل الدين إلى المجتمع لا بد أن تحل الشورى محل الاستبداد فالذي قال لا إكراه في الدين حرى به أن يقول لا إكراه في الحكم...

وإذا ما دخل الدين مرافق الدولة ومنشأت المال....حلت الأمانة محل الخيانة والصدق محل الكذب والمال الحلال محل السرقة والاحتيال وإذا ما دخل الدين إلى الدولة تحولت من دولة لا اخلاقية إلى دولة أخلاقية...

## حرية الإنسان

نرى مما ذكرأن دخول الدين إلى حلبة الصراع، لا شك أنه سيؤدي إلى إنتصار الحق والحرية ، فالمباديء التي يحملها الدين في طياته تؤدي ولا شك إلى انتصار القيم والأخلاق، وأكثر الناس استفادة من ذلك هم الفقراء والدهماء من الناس ، حيث ترفع عنهم قيود المال والاستغلال وتحكم الاقطاع... وتنتهي إلى الأبد عبودية االاقطاع ورأس المال وينتهي بانتهائها التحكم في حاجات الإنسان الضرورية ... تلك الحاجات الماسة التي لا يمكن التنازل عنها، والتي تغل من يد الإنسان وفكره، فتجعله عبدا لغيره من الناس إذا ما احتجبت أو اختفت عنه...

وعلى ذلك فإن الإنسان حين يناضل من أجل نصرة الدين وإنزاله إلى الساحة الاجتماعية ليشارك الناس حياتهم، يكون الإنسان قد ناضل من أجل حريته، وإذا ما انتصر الدين وشارك الناس في دنياهم فلا بد أن تنتصر حرية الإنسان ... وتنتهي قيوده التي كبل بها طويلاً، إلى الأبد ، في ذلك الوقت يكون الإنسان حراً حين يفكر... وحراً حين يأكل وحراً حين يشرب... بحدود الدائرة العادلة التي رسمت في الدين بدقة واتزان وتحقق للإنسان سعادته...

فيتسع له الوقت في أن يعيد النظر في حساباته القديمة، وانتماءاته التي انتمى اليها، والمذاهب التي اعتنقها عنوة ودون اختيار وإذا ما تم له ذلك، عاد إلى فطرته الأولى التي فطر عليها ولا بد بالتالي أن يُعمل العقل في كل ما اعتنق من مباديء..... الوافد منها وغير الوافد... الوافد الذي مسح دماغه وغسله وأحل فيه مباديء وقوانين ما أنزل الله بها من سلطان، وغير الوافد الذي حرّف بأيدي الطواغيت والأوثان.... من أجل تنمية مصالحهم ليبقى الناس خدما وعبيداً لهم، الذين أحالوا العقائد إلى شعوذة وتدجيل، أخافوا بها الناس

وقضوا مضاجعهم ونسوا أن الذي يجب أن نخشاه هو الله، وأن الذي يجب أن يعبد... لا إله غيره... وأنه الفرد الصمد لا يشاركه في ذلك أحد... والتوحيد الفطري هو الذي يضفي القدسية والتفرد في العبادة على الله وحده وهو شعور ذاتي ملاصق لذات الإنسان... لا بل هو الذي يشكل ضمير الإنسان والدولة وخلقهما. ومن الظلم أن نفقدهما «الإنسان والدولة مثل هذا الشعور الفطري لئلا يصبحا «الاثنين» بلا ضمير ولا أخلاق....

## الدين فطري

إن الإنسان بطبعه خلق متديناً، والدين يمثل الجزء المضيء في ذاته، وهو على هذا فهو إحساس ذاتي يلازم الإنسان ولا يفارقه ، شأنه شأن الروح في الجسد ما إن تفارقه يبقى جسداً بلا روح... وكذا العنصر الديني أو الإحساس الديني ما أن يفارق الإنسان حتى يتحول إلى كتلة من الشر فقدت آخر نأمة من الخير أو بالتعبير الجاري... جسداً أيضاً بلا روح فالروح لا استغناء عنها للإنسان، بل هي حياة الإنسان ... اما العنصر الديني فيه يمكن ان نقول عنه بأنه روح الحياة وعلى هذا، فان جذوة الإيمان نفثت مع الإنسان في ذات الوقت الذي نفثت فيه الروح... كيف لا، والذي نفخ الروح هو المعني بإحساس الإنسان الديني.

وإن قلنا بذلك ، وهو الذي يجب أن نقوله، ندرك الحقيقة القرآنية.. القائلة بأن الإنسان.... ما وجد إلا ليعبد الله ، أي هو مفطور أصلا لهذه المهمة ، أي أنه ما وجد عبثا قال تعالى ﴿**وَمَا خَلَقتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعبُدُون**﴾ وكل شيء ينطق بفطرية الدين لدى الإنسان.

فالإنسان لم يخلق نفسه ، باديء ذي بدء، حتى يخرج هذه الإحساس من ذاته، فإن كان ذلك لأمكنه أن يتنصل من هذا الإحساس.. ولكن هيهات هيهات أن يخلق ذاته...

وهذا الشعور حتى الإنسان العادي يدركه، ويفهم مغزاه لذا كان الاحساس ، الديني فطريا لدى الجميع شأنه شأن الخوف والجوع والعطش، ووراثة الأمراض ، التي تكون في جسم الإنسان ولكنها لا تظهر إلا في ظروف ملائمة ومناسبة وأما الرائي من بعيد لإنسان ما مثلاً يشعر أنه سليم مائة بالمائة ولكنه أصلا مريض... من ذلك نرى.. أن الإنسان يجمع في ذاته عدة تناقضات أو مجموعة من المتناقضات وهذه لا ينكرها أحد ففيه عناصر الخير إلى جانب عناصر الشر. وعناصر الشجاعة إلى عناصر الخوف وعناصر االكرم إلى عناصر

البخل.... الخ.

كل ذلك لا بد أن يضاف له عنصر مهم أو قل أهمها على الاطلاق وهو العنصر الديني أو الإحساس الديني فهو الكابح النشط لعناصر السلب لدى الإنسان أو هو بمثابة البؤرة المضيئة والمشرقة في ذات الإنسان من الظلم أو قل العسف غيابها أو تغيبها من لدى الأفراد الذي يفرض بالتالي. حقيقة غيابها من المجتمع فما المجتمع إلا مجموع الأفراد.

دعونا نناقش الأمر بجدية وتفصيل... ونركز على عناصر وحقائق أساسية لأثراء هذا الموضوع، فهو موضوع... جدٌ مهم لتغيير المفاهيم الباطلة التي كان لها التأثير السيء على أخلاقيات الإنسان وهو يأكل ، وهو يشرب.... وهو يحكم ... وهو يضرب في الأرض ..... إذا غاب عنصر الوازع أو الرادع لديه... وهو يقوم بتلك الأعمال ، ومن اين له بذلك إذا طمس منه آخر شعاع ديني لديه... على أية حال. قبل أن نذهب بعيداً في التفصيل، نو د أن نستعرض العوامل التي توضح ارتباط الإنسان الوثيق بخالقه، أو إحساس الإنسان وميله الفطري نحو ذات الله... أو قل شعوره الديني الفطري ولنبدأ.

## أولاً: خلق الإنسان وبدايته

يجمع الجميع على أن الإنسان مخلوق أصلاً من طين وبعد أن اكتمل تشكيل الطين، وبقي جسداً بلا حراك، نفخ الله فيه من روحه كما ورد ذلك جلياً في القرآن اذ يقول تعالى: **﴿وَمِن آيَاتِهِ أَن خَلَقَكُم مِن تُرَابٍ﴾** وقال أيضاً **﴿وَلَقَد خَلَقنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِن طِينٍ....﴾** وقال: **﴿فَإِذا سَوِيتُهُ وَنَفَختُ فِيهِ مِن رُوحِي...﴾** [الحجر ٢٩].

والذي يهمنا من هذا ... أن الإنسان ذاته ، فيه شيء من ذات الله، وهذا الشيء هو قطعاً أهم الأشياء وأبرزها في خلق الإنسان... لأنه قبل ذلك الشيء كان جسداً بلا حراك أي كتلة من طين لازب وحين تتبخر منه الرطوبة يصبح تمثالاً هشاً... لا يضر ولا ينفع ولا يعقل ولا يسمع... فما إن دخل فيه الشيء الذي هو من ذات الله حتى أصبح جسداً مملوءاً بالحيوية والنشاط والحركة والسمع والبصر واكتملت صورته وأصبح في أحسن تقويم....

الذي صنع ذلك ، هل يعقل أن ينسى شيئاً أساسياً... بل رئيسياً في ذات الإنسان ، وهو الذي يمثل العنصر المضيء، وإن قلنا بذلك... وهو حاشا لله أن ينسى شيئا أو يتقاعس عن شيء ، نعم إن كنا قد وافقنا على ذلك، فاننا لا بد أن نوافق على نتائج تلك المعطية...

أ- وهي أن الذي صنع الإنسان وخلقه لم يطلب منه بالضرورة أن يعبده أو يعترف له

بصنيعه وإلا لكان قد أوجد لديه هذا الاستعداد الفطري وهو قطعاً قادر ذلك... فهو الذي خلقه وبث فيه من روحه...

ب ـ وهذا يعني أيضاً أن الإنسان خلق عبثاً ودون مغزى أو هدف فقط للأكل والشرب والخطأ ثم لا عقاب ولا حساب ويدحض هذه الأقوال التي يلهج بها بعض الملاحدة، وجود العنصر الثاني وهو:

## ثانياً: العقل:

ان وجود العقل لدى الإنسان أعطاه ميزة تفرد بها على سائر الخلق فالعقل مناط التكليف ... ولم تكن تلك الميزة إلا بسبب ومن أجل شيء والسبب الذي وجد من أجله العقل هو التمييز بين الخير والشر ولكن لم هذا التمييز...؟ لا بد أن في الأمر سراً وإلا لماذا أعطيت هذه الأهمية للعقل لاشك أن هناك محاسبة على الأعمال... هذه الأمور.... قطعاً ليست فلسفية ولكنها ضرورية للإنسان كضرورة الهواء لحياته فهي بمثابة عنصر حيوي في توضيح شعور الإنسان الديني الذي يتجذر ويتعمق بإيحاءات الكون ومدركات العقل لذلك، نفهم من ذلك إن العقل يمثل صلة الوصل بين الكون وظواهره وبين ذات الإنسان التي جوهرها القلب وأساسها الروح ... فكما أن الدم عنصر الحياة لا بد أن يمر في القلب ليوزع على جميع أجزاء الجسم فإن العقل يلتقط من الكون اشعاعات الإيمان ويضخها في القلب لتسري في الجسم مسرى الدم حتى تتغذى عليها روح الإنسان كما هو الدم غذاء للجسم.... من هنا نلحظ لماذا يكون الإيمان اليقيني النابع من وعي العقل وإدراكه لكنه الحياة والكون.... نعم، يكون هذا الإيمان قوياً لا يتزعزع... والقرآن حينما جاء وأوضح الالتزام والتكليف والحساب والعقاب صدق القول بأن الدين فطري لدى الإنسان لذا نادى وشجع العقل في أكثر من آية على التدبر في ملكوت السموات والأرض لأن ذلك يوصل الإنسان إلى الحق اليقين والإيمان الثابت وهذا تحرير للإنسان من ربقة الوسطاء والأوثان. وهو يتقرب إلى الله...

## ثالثاً: الكون وايحاؤه:

إن المتأمل بعناصر الكون والمتدبر بالنظام العجيب الذي تخضع له تلك العناصر ليدرك وبدون عناء أنها لم تكن لتوجد لولا الموجد العظيم القادر على ايجادها المنظم القادر على تنظيمها وما أوجدها وما نظمها إلا لأسباب. صحيح إن ظواهر الكون وعناصره أغلبها خلق

من أجل الإنسان وأن أكثرها سخر من أجله وهذا ورد ذكره في القرآن بالنص وحتى وان لم يأت في القرآن فهو ماثل للعيان يراه الإنسان ويلحظه حين غدوه وحين رواحه... وما وروده في القرآن إلا مصداقاً لذلك وتأكيداً عليه فمن منا لا يعلم آلاء الشمس والقمر علينا ومثلهما الماء والهواء والأرض والبحر والأنعام... الخ من لا يدرك تلك النعم فهو أصم أبكم... أو أعمى البصر والبصيرة ولكن الموضوع الذي يهمنا هنا هو الأهمية التي نجنيها ونحن نعي ونفهم كنه هذا الكون... وعظمة خالقه، ألا يوحي لنا ذلك إيحاء فطريا ملازما لنا ولا يفارقنا بأن خالق هذا الكون العجيب المنظم بمثل هذا التنظيم يستحق أن يعبد وأن يشكر على تلك النعم، إن ثمار الشجر ولحوم الحيوان ومنافع البحر أو منافع الشمس.. كل تلك أمور مادية نقطفها يوميا وتغذي الجزء المادي في حياتنا ... ولكن ما الذي يبقى لتغذية أرواحنا واذكاء شعلة الإيمان في قلوبنا ألا نحتاج إلى غذاء روحي آخر موازٍ لغذائنا المادي ذلك؟! وإن قلنا بأننا لا نحتاج فاننا نقر بأن الإنسان خلق عبثا دونما فائدة ولا حتى نتيجة..... فالموت لا بد أن يطاله..... فماذا بعد الموت؟؟ هل ينتهى وينتهي معه عمله فالذي فاز.. فاز في الدنيا بما اجترح من مباهجها وغرور متاعها... والذي خسر هو الذي جرى وراء الروحانيات والعبادات... يلهث وراءها وفي النهاية تخمد أنفاسه دون طائل فلا هو أحرزها في الحياة ولا هو كذلك بعد الممات... أيعقل ذلك... ومن الذي يؤيد ذلك....؟؟

لا أحد يؤيد ذلك إلا الماديون التافهون الذين أشرعوا عقولهم على عالم المادة والشهوة وأغلقوها على عالم الروح والوحدانية من ذلك نرى وبدون أدنى شك أن آيات الله في الآفاق الكونية كفيلة إذا ما تدبرها الإنسان بحرية وتجرد أن تعيده إلى رشده الذي فطر عليه وصوابه الذي ارتضاه الله له... وكلما زاد وعي الإنسان الكوني كلما زاد وعيه الإيماني وحسه الد يني بل يتعمق في داخله الإيمان ويحصل في قرارة نفسه اليقين بأن الله موجود... ويدرَك بالطبيعة والتلقائية وأن ذلك الوعي والإقرار يتطلب منه تكاليف تجاه ذلك الرب... ولكن من أين حصلت له تلك القناعات؟

كما علمتم أن العقل هو مناط التكليف وهو المسؤول عن التلقي والتفريق ويساعده في ذلك أحاسيس الإنسان الأخرى العين الأنف... الخ ليدرك كنه الكون عن كثب فيقوم بتجميع تلك المعلومات الواردة ويحصل لديه اليقين بتلك القناعات المجبولة بأشعة الإيمان تمرعبر القلب فتستقر فيه وبالتالي تسير اشعة الإيمان وضوؤه مع الدم لتسري في العروق فتغذي

الروح كما يتغذي الجسم على ماديات الكون... وهكذا تزداد جذوة الإيمان المبثوثة في ذات الإنسان من يوم خلق عن طريق الإيحاء الكوني والتلقائية وكلما ازدادت القناعة لدى الإنسان عن طريق التفكر بملكوت السموات والأرض تزداد تلك الجذوة ويشتد أوارها حتى يصل الإنسان إلى درجة العشق والوله بحب الله.

من هنا يدخل عنصر الحب في هذا الاحساس الفطري الذي كان بمثابة النار تحت الرماد حتى ازداد عن طريق الإيحاء الكوني ومدركات العقل فالحب في الاعتقاد الديني امر ضروري للوصول إلى الإيمان الكامل بالله وإن لم يكن كذلك فالإنسان يكون متردداً بين الشك واليقين أي لم تنتصر ذاته وروحه بعد...

وأما حب الأشخاص أو بعض ظواهر الكون أو عبادتها وهو ما سنتحدث عنه في مجال آخر فإنه الوثنية التي تلبس لباس الطاعة والتقرب إلى الله فالله قريب لا يحتاج إلى وسيط أو سمسار يجيب دعوة الداعي إذا دعاه وهو أقرب إلينا من حبل الوريد كيف لا... وروحنا من روحه وهو الأجدر بالحب من غيره قد يفهم مما نقول أننا ننكر حب الابن لابيه أو حب البنت لامها أو حب الزوج لزوجته والخطيب لخطيبته إذا كنا كذلك فإننا نطالب بانتزاع هذا الحب من خلال الأسرة ومن ثم ندعو إلى إحلال الكره مكانه.

أيعقل أن ننادي بعودة الدين إلى الدولة ومن ثم المجتمع الذي أول خلية فيه هي الأسرة ومن ثم نطالب بإحلال الكره مكان الحب في الأسرة؟؟ ألا يعني ذلك أن أول ثمار نقطفها من عودة الدين هو الكره والبغضاء لا..... نحن لم نقل ذلك... وحاشا لله أن تكون الدعوة إليه أساسها الكره والبغضاء..

وأما الذي نقوله هو أن الحب يجب ألا يطغى على حب الله أو يفوقه أو يشغل الإنسان عن عبادة الله والتوحيد إليه لأن ذلك العمل معناه تقديم وتقديس الحب الجزئي على الحب الكلي والمفروض هو أن يكون العكس أي الكل يحتوي الجزء فالنعم التي تكمن في حيثيات الكون والتي غالباً ما تؤدي إلى محبة أصحابها كما أوردنا في محبة أفراد الأسرة ويمكن قياس ذلك على نعم الشمس والقمر والأنعام والأشجار والأنهار... الخ.

تلك النعم التي غالباً ما تحفر في القلوب محبة بالغة لأصحابها أو الذين كانوا سبباً - ليس إلا في تكوينها... نعم تلك ليست إلا - من آلاء الله على عباده وما أولئك إلا أسباباً لها لا حول لهم، على صنعها... ولا قوة... والحب المتكون ذاك ليس إلا حباً جزئياً ولا

يعقل أن نقدم الجزء على الكل ولا بأس أن نوضح أكثر ...

فحين يحب العامل رب العمل لأنه أعطاه من ماله نظير عمل قام به العامل لرب العمل ومن ثم يصل هذا الحب إلى درجة العبادة ويستغل رب العمل ذلك الموقف من العامل بحيث يستعبده ويلهيه عن ذكر الله ويصبح «العامل» شغله الشاغل وهاجسه الوحيد العمل ورب العمل والمال الذي يأخذه هذا لا شك هو الباطل هو الشرك .... هو الوثنية الحديثة التي لا بد من سحقها وإزالة الستار عن الحقيقة بأن المال مال الله وهو القادر فقط على أن يبسط الرزق لمن يشاء وبغير حساب... وقس مثل ذلك على المستأجر والمؤجر والرئيس والمرؤوس... الخ هذا بالنسبة للإنسان وحتى بالنسبة لظواهر الكون الآخرى مثل الشمس والقمر... الخ فهذه الأمور الجزئية وأن أحببناها لفوائدها أو جمالها أو طعمها أو روائحها فلا يجب أن يفوق حبها حب الخالق لها لأنها لم تصنع ذاتها ولم توجد نفسها بنفسها.

فحين تعثرت خطى الإنسان وهو يختار السبل نحو الله أدخل مثل هذه الأمور في اعتقاده وعباداته أدخل الحب عنصراً أساسياً في العقيدة والتوحيد فأحب النار للتقرب إلى الله وأحب الشمس لنورها للتقرب إلى الله وأحب القمر لنفس الغاية وأحب الأنهار.... الخ ولما التفت إلى مثل هذه الجزئيات بحيث خلطها في الكليات حتى غابت الأخيرة وتلاشت أبقى الجزئيات المادية لأنها قريبة من حواسه فأحبها حباً جماً ملك عليه قلبه وبالتالي انحرف عن ذلك عقله فإمانال ذلك العقل الإغلاق والإلغاء أو ناله الجمود والإضمحلال أو ناله الكسل والتقوقع ولما أصبح الإنسان هذا حاله دخل المشعوذون المنتفعون من تلك الإنحرافات ومعهم حين دخلوا الساحة جميع وسائل الإستغلال من السحر والشعوذة والتخويف فدخل بالتالي عنصر الخوف إلى ذات الإنسان وشعوره نحو الله فالذي يخيفه يحرص على رضاه ومن ثم يتقرب إليه بشتى القرابين إلى درجة العبادة حتى ضل الطريق بسبب بعده عن الأساسات الصحيحة للدين والتدين.

صحيح أن عنصر التخويف أمر ضروري في الدين ولكنه لردع المخالفين أما المؤمنون فإن هذا الإحساس يحل محله الحب والعشق ودليلنا على ذلك أن المؤمن لا يشعر بذرة من الخوف وهو يقدم على المعركة في سبيل الله وإعلاء كلمة الحق بل يحل في كيانه قوة لا تقاوم وشجاعة لا تضاهي والأنبياء أمثلة على ذلك فالخوف لا يشعر به إلا المتردد أما الذي عرف السبيل الصحيح فممن يخاف؟ ولماذا يخاف؟ وطريقه معبدة بالخير والصلاح والاستقامة والإيمان اليقيني وللحقيقة نقول إن الإنسان ما ضاع إلا حينما فقد عقله أو ألغاه

أو سخّره من أجل منافع مادية بحته أعمته عن الحقائق التي هي ماثله أمامه اكتفى وهو يبحث عن الله بالتقليد الأعمى للآباء والأجداد شغلته الدنيا بزخارفها وشهواتها الزائفة وراح يلهث ويجري وراء مغريات المال والشهوة والجاه والسلطان وكلها تمثل أوثان العصر الجديد..... نلحظ مما ذكر أن الدين فطرى لدى الإنسان وبذرته زرعت في الإنسان من يوم خلقه... وأن الكون إيحاؤه.... والعقل مغذية ومقويه وها هو القرآن يؤكد على ذلك فيقول ﴿**فَأَقِم وَجهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيهَا لاَ تَبدِيلَ لِخلقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ....**﴾ [الروم٣٠]... كما يؤكد أن النفس الإنسانية لديها القدرة والإلهام للتمييز بين الخير والشر وهذا هو الأساس في الدين إذ يقول تعالى ﴿**فَأَلهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقوَاهَا**﴾ ، ﴿**قد اَفلَحَ مَن زَكَّاهَا**﴾ ﴿**وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**﴾ [الشمس ٨-١٠] وما على الإنسان إلا أن يزكي نفسه ويطهرها ويقوي جذوة الإيمان المبثوثة في ذاته وسبيله إلى ذلك حرية التفكير في ملكوت السموات والأرض ودون قيد أو شرط وهذا الحق ممنوح للإنسان في كل مكان وزمان أي أن الجميع سواسية في هذا الحق بل بالعكس لا فضل لعربي أعجمي إلا بالتقوى «الدين»... أي أنّ الدين هو أساس التمايز بين الناس لذا لا يمكن ان نفصل الدين عن ذات الإنسان شأنه شأن أي إحساس آخر لا بل هو أعز وأهم لأنه بمثابة قيم وأخلاق وعادات الإنسان كذلك بالنسبة للدولة فهو يمثل أخلاق وقيم وضمير الدولة لا بل هو الشورى والعدل والمساواة في الدولة.

وبعد فان الفكر العقائدي ضروري لأنه يمس حرية الإنسان في الصميم وهو أكثر من ضروري لأنه يساعد ويساهم على رفع كل القيود من الخوف والحزن والكبت والتسلط والظلم والعدوان وكل مظاهر الوثنية عن كاهل الإنسان والتي كبلته زمناً طويلاً أعمته عن الحقيقة الكبرى... حقيقة الله...

# ثانياً ـ العلم

ان العلم الذي بشر القرآن به ، منذ اربعة عشر قرناً ، هو العلم الفريد في نوعه ، انه العلم الذي يطال مكنون الشخصية الانسانية، بكل دقائقها وحيثياتها، اشارة أو تلميحاً واما التفاصيل فهي متروكة لأعمال العقل فيها دون قيد أو شرط الاشرط الإيمان ،الذي يظل موازيا لحركة الانسان... والا لما قال تعالى ﴿**إقرأْ باسمِ ربكَ**﴾ فالتوحيد والايمان لا بد وأن يتوازيا مع حركة الانسان العلمية والقرائية، واذا ما تخلى الانسان عن واحدة منها سيهزم لا محالة، فاذا التزم بالعلم والقراءة ، وترك الايمان فإن الحركة الانمائية للشخصية الانسانية تبقى مبتورة وناقصة لأن الإنماء الذي حصل فقط حصل في الجزء المادي من حياة الانسان ـ وأما الجزء المعنوي والروحي فقد ترك جانباً بدون توعية أو تنمية ومن ثم يصبح التقدم أو النمو مختلاً لأنه كان في جانب واحد والذي ينطبق على الشخص لا بد أن ينطبق على الأمة.

فحين تستورد الأمة مبتكرات العصر، مهما كان نوعها، فإنها بمثابة نقل الدم من جسم إلى آخر دون مراعاة لنوعية الدم أو نوعية الجسم، فلا بد أن يكون هذا الدم المنقول ملائماً وموائماً للجسم الجديد الذي يسري في عروقه، كيف لا وهو دم الحياة وكذلك «نقل عناصر الحضارة والتقدم» فانها لا تجدي في قليل أو كثير ، إذا لم تكن عملية النقل سليمة بحيث تتلائم تلك العناصر المنقولة وتتوائم مع عادات وتقاليد وكيان الأمة، المنقول اليها تلك العناصر ، طبعاً «واللبيب من الاشارة يفهم».

إذ كان للكثير من العناصر الحضارية المنقولة الينا من الغرب أكبر المساويء على حضارتنا وعاداتنا، حتى ثقافتنا حل فيها من العناصر ما أساء إلى كيان الأمة برمته إذ كيف لا يكون الأمر كذلك وقد اساءت ـ تلك العناصر الوا فدة ـ إلى نفوسنا، فالثقة بالنفس حل محلها عدم الثقة بالنفس والاعتماد على النفس حل محله التكاسل والتقوقع والركون إلى ما يبتكره العقل الغربي..... ونبقى ننتظر ذلك العقل حتى يأتينا ما يفعله على طبق من الذهب، بذا خسرنا مواردنا المالية، وتحطمت فعالية العقل لدينا، وهزمنا بالتالي نفسياً واقتصادياً... لا بل حضارياً...

فاصبحت عقولنا في غلف، لا تدري من أمرها شيئاً، نسينا المقومات الحضارية التي لا بد أن ترتكز عليها حياتنا، الأمر الذي سهل على الاعداء مهمه استعمارنا واستغلال الامكانيات الفريدة التي يتمتع بها وطن هذه الأمة... وعذرنا في ذلك أننا أمة متخلفة لا تصلح لشيء، فلم لا نعطي ونعطي... وكل ذلك، نتائجه السيئة لا بد أن تقع على رؤوسنا وعزاؤنا الوحيد، بل وهاجسنا الوحيد، هو أن نتمتع مقابل ذلك العطاء ـ غير المحدود للخامات ـ بمبتكرات الغرب بالغاً ما بلغت التضحيات، حتى اصبحنا امة مستهلكة لسلع الغرب ليس الا... فنحن ـ نتمي البطون.. وهم ينمون العقول، وبمعنى أصح هم اصحاب العقول لا بل هم أولوا الألباب ونحن اصحاب البطون ليس الا.....

هم الفكر والبناء الحضاري، ونحن مقابل ذلك الاستهلاك الحضاري، هل هذه امتنا العريقة التي طوحت باعظم امبراطوريتين؟ لا بشيء الا بفكرها الحضاري... «القرآني» هل هذه امتنا التي كانت يوماً ما، منهمكة في تأسيس البناء الحضاري المتكامل، وبناة الحضارة الآن كانوا لا يملكون من امرهم شيئاً.

هل هذه امتنا وهذه مهمتها في الحياة الانسانية ـ الاستهلاك الحضاري وكفى.... وإلا كيف يقال «بشهادة السماء» أننا خير أمة.

أنا أقول أن هذه الأمة ليست الأمة المفترض أن تكون.... إذن من الذي أوحى لنا بأننا لسنا أهلاً للحضارة حتى هزمنا هذه الهزيمة المنكرة في النفس وفي العقل وفي الأرض وفي كل شيء..... من ؟؟ ومن هو الفاعل؟؟

إذا كانت السماء تقول غير ذلك، لا بل تقول أنتم خير أمة فأي شهادة تعظم تلك الشهادة.

أن نقول نحن المهزومين الآن ليس عيباً، ولكن العيب الاصرار على الهزيمة، والقبول بها « أقصد هنا بالهزيمة» ليس هزيمة الأرض أو هزيمة الحروب فهذه واضحة وأما ما أقصده هي الهزيمة التي لا تعادلها هزيمة وهي هزيمة النفس والإرادة، التي أحالت الإنسان منا إلى رقم بلا حساب إلى طاقة معطلة مستهلك... لا منتج.

أقول هنا أن الامر جليته واضحة، إذ ما دام العصر الذي نحن فيه عصر علم وتكنولوجيا ونحن لاحظ لنا من العلم والتكنولوجيا فعليه أن نقبل بنتيجة تلك المعادلة أو الحقيقة، فهم ينتجون ويخترعون ونحن لا بد أن نكون أسواقاً لا نتاجهم واختراعهم.وإن قدمنا من شيء

للحضارة فلا أقل من أن نبيعهم خاماتنا الحضارية بأبخس الأثمان...

هم قالوا لنا ذلك... وعلينا أن نقبل بأقوالهم تلك... فإن لم يكن طوعاً فكراهية.... وقطعاً ذلك لن يكون.... وإن كان حينا من الدهر... فلن يكون الدهر كله... إنها مرحلة تأخر وانحطاط... لا بأس إنها كبوة.... فأيضاً لا بأس.. إذ لكل حصان كبوة واما أن نبقى كذلك إلى الأبد فهو البأس واليأس والهوان...

فهذا أوان الانطلاق.... وهذا أوان الانبعاث الحضاري لهذه الأمة ، علينا أن نفهم أنفسنا فهماً جيداً، نقدر تلك الامكانيات الحضارية التي تحتويها أرضنا من ديانات.... وخامات... ونفجر طاقاتها الهائلة فاذا كان ذرة من الراديوم تفجر مدينة فلتكن تلك الذرة بالإيمان لبناء مدينة.

إن كانوا هم بناة المدينة الحديثة فهم ـ ايضاً ـ أساس هدمها إن كانوا هم بناة وسائل الراحة فهم ـ ايضاً ـ اساس المتاعب ـ لأن الذي يبنون تنقصه، ليس أساسات المادة، ولكن أساسات الروح، هم يملكون العلم ولكن ينقصهم الإيمان أما نحن فإننا نملك العلم والإيمان... وأساساتهما.

إن الذي قال منهم أن الأرض كروية وتدور حول الشمس لم يقل ذلك الا بعد مرور أحد عشر قرناً على تلك الحقيقة القرآنية إن جاليليو الذي قال ذلك في سنة ١٦١٩م انبروا له دعاة الظلم والجهل والتسلط بالقول: أنت مجنون، فالذي كان في ظنهم جنوناً كان حقيقة ناصعة في صفحات القرآن وحوكم ذلك ا لشخص على رؤوس الأشهاد ولم يرحموا شيخوخته وراودوه على أن يختار بين أمرين اثنين ـ لا ثالث لهما ـ إما أن يقول أنا مخطيء ويعلن توبته او يحدث له ما لا تحمد عقباه، من التنكيل والتعذيب... ولكن آثر الاعتراف بالذنب ناجياً بجلده على البوح بالحقيقة ثانية.

هؤلاء هم أولئك وغيرهم الذين يقودون دفة الحضارة هذه الايام وقطعاً لم يتسنى لهم ذلك إلا بغياب الأجدر بها وهم أصل وسبب غيابه فالذي كانوا يفعلونه مع ذاك المفكر اسقطوه بمنهجهم ألاسقاطي على أتباع هذا الدين وأوحوا لنا أن الدين والعلم لا يجتمعان.

وفي اليونان ذات الشيء حدث حين اتهم سقراط بممارسة النظر والتأمل والبحث في ظواهر الكون او الصعود بنظرة في أعالي السماء وسقراط، كما نعلم . وغيره من فلاسفة اليونان «افلاطون وارسطو» كانوا هم، وبحق أساس الحضارة اليونانية لا بل هم أعلامها

وفلاسفتها. ورغم ذلك كان محجوراً عليهم دراسة الطبيعة والنظر في حيثياتها.

وهو نفس الامر الذي حدث بعد ذلك حين حرّمت الكنيسة الاوروبية مثل ذلك التعامل مع الطبيعة وللحق ، لم تتخلص اوروبا من هذا الكابوس المقيت إلا في مرحلة متأخرة وهي المرحلة التي يمكن أن نحددها مع بداية أفول المجد الإسلامي والحضارة الإسلامية العريقة ، لا بل يمكن القول أن الخيط الحضاري «العلمي» لأوروبا بدأ حيث انتهى خيط الحضارة الإسلامية.

ففي الوقت الذي مالت فيه شمس دولة الإسلام إلى المغيب، بدأت أوربا تستفيق على إرث حضاري غاية في العمق والنضوج وبذا استلمت ذاك الإرث الحضاري ـ العلمي والذي خلّفه أشهر مفكري الإسلام ـ أمثال الخوارزمي وابن الهيثم والرازي وغيرهم كثير ، استلمته ودون جزاءً أو شكوراً

ومن ذاك الزمان إلى هذه الأيام وهم يدركون جيداً أن الإسلام جاء بالعلم ودعا الناس بل وشجعهم للاقبال عليه، حتى أنهم وهم يدركون هذه الحقيقة مارسوا لعبتهم الحقيرة التي اعتادوا عليها، مع مفكريهم، ورسخوا في اذهان الناس فكرة مفادها أن الدين شيء والعلم شيء آخر ونجحوا كثيراً في أهدافهم تلك فحولوا الناس عن العلم لأن الدين يحرمه ودفعوا مقابل ذلك بالمشعوذين إلى الساحة ليحلوا محل العلم، والمتعلمين، مروّجين بذات الوقت شتى الأقاويل والاشاعات عن هذا الدين حتى تمت لهم السيطرة علينا وعلى عقولنا ـ الامر الذي نحصد نتائجه هذه الأيام... كل ذلك كان أبان فترة الانحطاط والاستعمار وأما الآن فنحن مدعوون لبعث هذه الحضارة من جديد إذ بعد أن تخلفنا عن ركب الحضارة هذا التخلف المزري لا مناص من التفتيش عن منابع الحضارة الأصيلة لنرتوي منها الأصالة والفكر النقي الممزوج بترياق الإيمان. لذا كان رأينا أن نكشف النقاب عن رأي القرآن في العلم والتعلم... وما مدى اهتمامه بهذه الظاهرة «العلمية» حتى نستطيع دحض دعاة الفكر والالحاد من نفس القناة لا بل ـ بنفس السلاح الذي حاربونا به، حين طعنوا بسهام الإفك والحقد بنية الفكر الإسلامي، والذي يتمثل جوهره بالقرآن...

ليتبين لأولئك الذين ما زالوا يلهثون وراء مدنية مادية زائفة ـ ان الذي جاء به القرآن لم يأت به كتاب آخر... لا ندعي أنه موسوعة من العلم لا حاشا لله أن يكون كذلك ، لأنه يكون لمخاطبة أهل العلم فقط ولعصرهم وكفى... لا بل هو أكثر من ذلك.. إذ يخاطب

جميع شرائح المجتمع...

ولكن الذي نقصده أن الإشارات والإيماءات التي جاء بها انما هي دعوة للبحث والتأمل والتفكير بملكوت السموات والأرض بحرية وا طمئنان وأن من يفعل ذلك لهو مؤمن ومؤمن حقاً لا كما يدعون ويتهمون أنه كافر وملحد..

وكما أن القصد الثاني: هو أن الذي أتى به القرآن لا يستطيع كائناً من كان أن يأتي به وخاصة في زمن الجهل والجاهلية إذ لا يعقل أن يأتي أمي لا يقرأ ولا يكتب ، بمثل هذه الإشارات والايماءات الكونية التي سنوضح بعضاً منها فيما بعد... وقطعاً الهدف من هذا هو عنصر الإيمان وأنه من عند الله.... وخلال ذلك يمتزج العنصر الإيماني مع الهدف العلمي، فحين يحثنا القرآن على العلم والتعلم في أكثر من آية لهو بمثابة إشارة واضحة أننا على الصراط المستقيم سائرون... حين ندخل محراب العلم...

## القرآن معجزة اليوم والأمس

إن محمداً بن عبد الله كان قبل مجيء القرآن شخصاً عادياً والمجتمع الذي يعيش فيه كانت تتناوشه الفرقة وتمزقه الحروب والفتن ـ التي كثيراً ما كانت لتنقطع وتنتهي حتى تبدأ من جديد فطمع فيها الطامعون ـ الامر الذي كان لا تستقر لهم عليه حال ولا يقر لهم قرار.

وبين عشية وضحاها وإثر نزول القرآن تتغير الحال ويستقر لهم البال وتسود المحبة والوئام، وتنتهي النزاعات وتنشأ دولة فتية ترسي دعائم العدل والشورى والتسامح في الداخل وتهدد كيان أعظم امبراطوريتين وثنيتين في الخارج. الا يعني كل ذلك شيئاً في هذا الذي بزغ عليهم فأنار دروبهم وأخرجهم من الظلمات إلى النور لا بل أي اعجاز يملكه هذا الكتاب حتى استطاع الناس به الوصول إلى أقصى غاياتهم في الوحدة والأمن والسلام والاطمئنان... لا يشك اثنان في أن العنصر المهم في المعادلة هو الكتاب وليس حامل الكتاب والا لِمَ لَمْ يحصل مثل ذلك وقد لبث حامل الكتاب اربعون سنة دون أن يفعل الذي فعله بعد نزول هذا الكتاب... الكل يجمع على أن القرآن جاء بمعجزة في ذاك الزمان... والمعجزة لا بد أن تأتي من صنف ما برع فيه أهل ذاك الزمان فاتفق الجميع على أن تلك المعجزة تتمثل في بلاغته ولغته رغم أن حامله أمي حتى أنه تحداهم بالنص فلنسمع بعض هذا التحدي... قال تعالى ﴿**أَم يَقُولُونَ افتَرَاهُ... قُل فَأتُواْ بِعَشرِ سُوَرٍ مِّثلِهِ مُفتَرَيَاتٍ وادعُواْ مَنِ استَطَعتُم مِن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُم صَادِقِينَ**﴾ [هود١٣] وفي مكان آخر يقول

تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم فِي رَيبٍ مِمَّا نَزَّلنَا عَلَى عَبدِنَا فَأتُواْ بِسُورَةٍ مِنْ مِثلِهِ وَادعُواْ شُهَدَاءَكُم مِن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُم صَادِقِينَ﴾ [ البقرة ٢٣].

ويقول: ﴿أَم يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ... بَل لاَ يُؤمِنُونَ * فَليَأتُواْ بِحَدِيثٍ مِثلِهِ إِن كَانُواْ صَادِقِينَ﴾ [الطور٣٣-٣٤].

وتصل قمة التحدي إلى أن يقول: ﴿قُل لَئِن اجتَمَعَتِ الإِنسُ وَالجِنُّ عَلَى أَن يَأتُواْ بِمِثلِ هَذَا القُرآنِ لاَ يَأتُونَ بِمِثلِهِ وَلَو كَانَ بَعضُهُم لِبَعضٍ ظَهِيراً﴾ [الاسراء٨٨].

ولكن ماذا ينفع ذلك الإعجاز، هل يغير الإنسان... وإن أحدث من تغيير فكيف يوصل ذاك التغييرإلى الهدف الاسمي وهو الإنتصار في مدة وجيزة من الزمن ناهيك عن تحطيم أعظم امبراطوريتين في ذاك الزمان... ما السر الحقيقي وراء ذلك..؟؟ لا شك أن العنصر المادي لا ولن يتغير بين عشية وضحاها، أما الذي يتغير فعلا فهو النفس الإنسانية فبدل أن كانت خاوية محطمة تنقصها الثقة اصبحت مؤمنة، واثقة لذا كانت عزيمتها لا تقاوم وصبرها لا تحده حدود.. وهي تناصر الحق.....

من ذلك ، وما دام القرآن بين ظهرانينا نرنو ونطمع أن تتغير النفوس وتقوي العزائم وتثق بنصر الله كالذي حدث في ذاك الزمان، وما دام القرآن صالح لكل زمان ومكان.. فلا شك أن فعله وفاعليته لم تنقص اوتتناقص... وعلى ذلك لا بد أن يكون فيه إعجازٌ علمي يصلح لهذا الزمان.. والقصد من الإعجاز هو الإيمان والثقة بنصر الله ومن ثم إعلاء كلمته على ظهر الأرض قد لا يصدق البعض أن بهذا القرآن أي إعجاز علمي مكتفياً منه بما فيه من هداية وإرشاد ذلك صحيح وحق ولكنه ليس كل الحق..... إذ كيف نفسر اهتمام القرآن بالظاهرة العلمية بمثل الإهتمام الذي نراه ونقرأه حين يتعرض بالإشارة والتلميح او بضرب الأمثال إلى الشمس والقمر، والسماء والأرض والليل و النهار والسحاب والبرق والرعد والنبات والحيوان وما مدى اهمية مثل ذلك وغيره في تغيير النفوس... وخاصة النفوس المهزومة، الا يعني ذلك، بالنسبة لها شيئاً.. والثبات الباقي عليه هذا الكتاب الا يعني ذلك شيئاً...؟ اتفقنا في البداية أن هدف الإعجاز هو الإيمان والثقة ورفع المعنويات والتأكد من نصر الله، ومثل هذا الذي حدث في الجاهلية الاولى لا بد أن يحدث بفعل معجزة العلم - القرآنية في الجاهلية الثانية.

نعم إن محمداً انتصر بمعجزة القرآن ولم ينتصر بشيء آخر كالمال مثلاً الذي كان أحوج الناس إليه أو السلاح الذي كان أعزل الناس منه، أو الرجال الذين حاربوه في باديء

دعوته اللهم إلا الذين أيدوه وهم لا يتجاوزون في عددهم اصابع اليد الواحده.. من ذلك نرى عظمة القرآن وعظمة معجزته، ونحن الآن أحوج إليها من أي وقت مضى، وإن كان هذا زمن العلم والعلماء فهو أيضاً معجزة لزمنهم... نحن لا نطلب من هذه المعجزة أكثر مما طلبه الرسول منها... نطلب وحدة الفكر والهدف ووحدة العقيدة كما نطلب الثقة والإيمان بنصر الله.

فحين يقول القرآن ﴿**وَيَسأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ.. قُلِ الرُّوحُ مِن أَمرِ رَبِّي.... وَمَا أُوتِيتُم مِنَ العِلمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ [الاسراء ٨٥].

أي إعجاز علمي بعد هذا الإعجاز، ناهيك الإيمان والتوحيد الذي يكمن في خفايا الإعجاز، هل أحد من البشر بعد مرور أربعة عشر قرناً استطلع او عرف ما هية الروح.. لا لم يستطلع أحد على ذلك... ولكن الآية تفتح المجال لمزيد من العلم حين تقول ﴿**وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾... أي فيها تشجيع على مواصلة العلم والتزود منه لعل وعسى أن يصل الانسان إلى شيء من ذلك...

وحين يقول: على سبيل المثال:

﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُواْ لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتَمَعُواْ لَهُ وَإِن يَسلُبهُمُ الذُّبَابُ شَيئاً لاَّ يَستَنقِذُوهُ مِنهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطلُوبُ**﴾ [الحج ٧٣].

يا لعظمة هذا القول أحس أنه موجه لأولئك الذين يلهثون وراء الطواغيت من أسيادهم القابعين في مواخير الرده والشرك الذين تحللوا من المباديء والقيم في سبيل اللحاق بركب التقدم الأوروبي الأمريكي الزائف. الذين انبهروا بما فعلته أيدي أسيادهم ناسين او متناسين أنه بمقدار التقدم الذي يحققوه علمياً بنفس المقدار الذي يخربون فيه كيانات الأمم وحضارات الشعوب.

## القرآن يخاطب أهل الفكر

يرى المتأمل بآيات القرآن الذي هو جوهر الرسالة الإسلامية أنه كثيراً ما يوجه الخطاب إلى أولي الألباب من أهل العلم والمعرفة حتى أنه قال: ﴿**وَمَا يَعلَمُ تَأوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِن عِندِ رَبِّنَا... وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلبَابِ**﴾ [آل عمران٧].

من هنا نرى المرتبة الممتازه التي وضع فيها أهل العلم وربما يتضح ذلك أكثر من الآية ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ...﴾ [آل عمران١٨] وعلى هذا نرى أن الإسلام ما انتشر إلا بالإسلوب العلمي وبالإقناع والمجادلة الحسنة الأمر الذي درج عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يبشر برسالة الإسلام العقلانية....

﴿أُدعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ [النحل١٢٥] ، وهل تتم المجادلة بغير الأدلة والبراهين الساطعة تعالوا نسمع قوله تعالى:

﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ * قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل ٦٤]

وعلى هذه كان باب النقاش مفتوحاً للجميع لذا قال تعالى: ﴿.... فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[ آل عمران١٥٩] ، ليس ذلك في أمور الدين والحكم ولكن أيضاً في امور الدنيا والتفكير بملكوت السموات والأرض ؛ مفتوح ايضاً للجميع لا بل يركز على أهل العلم.

فيقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران١٩٠] .

ويقول لاصحاب العقول: ﴿وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية٤].

أما المفكرون فيقول لهم: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية١٢].

ويقول:﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل١٧] والتفكير الحر في ملكوت السماوات والأرض لا بد أن يوصل إلى الإيمان .

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل٨٦].

وقال إن العلماء هم أكثر الناس تأهيلاً لتقوى الله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر ٢٨]. ها هو القران... وها هي مكانة العلم والعلماء في ثنايا آياته... تقدير.... ورعاية وحرية لم يسبق لها مثيل إذ لم نسمع قيداً ولو واحداً على التفكير كيف

لا والتفكير الحر ولا شيء غيره سبيل الحقيقة الوحيد.. ولم نبعد كثيراً: تعالوا نرى بعض الآيات التي فيها تكريم للعلم والعلماء فكانت الآية الأولى من القرآن إيذاناً بانبلاج عصر العلم والقرآءة .

قال تعالى: ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم**﴾ [العلق ١-٤].

وقال أيضاً: ﴿**..... قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم**﴾. [البقرة ٣٢].

أما في التكريم فيقول: ﴿**ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين**﴾ [القصص١٤].

وفي تكريم سيدنا يوسف: ﴿**ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين**﴾ [يوسف٢٢].

اما في التفضيل يقول:

﴿**قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون**﴾ [الزمر٩].

وقال:﴿**ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين**﴾ [النمل١٥] .

وقال: ﴿**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**﴾[المجادلة ١١].

أما الرسول فيقول عن العلم:

«من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم أيضاً».

ومن أجل ذلك اطلب المزيد من العلم ﴿**وقل رب زدني علماً**﴾ نعم اطلبه بكل الوسائل والإمكانيات بالملاحظة ـ باستخدام البصر، وبالتجربة ـ باستخدام الحواس، وبالتدبر والتفكير باستخدام العقل لئلا يصح فينا قوله تعالى: «إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون».

وقوله للمتقاعسين عن فعل ذلك :﴿**لهم قلوب لا يفقهون بها... ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها.. أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون**﴾ [الاعراف ١٧٩].

# وسائل اكتساب المعرفة والعلوم

تمهيد:

ليس غريباً أن يسمى الزمن الذي سبق مجيء القرآن بزمن الجاهلية، والحق، لم تكن تلك التسمية بمحض الصدفة أو من باب العبث والتهويم ولكن الحق الذي يجب أن نبرزه إزاء ذلك، هو أن عصر القرآن وساعة نزوله كان بداية لعصر علمي وفكري، لا يعلم مداه الا الله ولم تكن كلمات: «أقرأ، ن. والقلم وما يسطرون، إلا بداية لإنطلاقة عظيمة تخرج الناس من ظلمات الجهل لتلج بهم إلى عصر العلوم والفكر والتوحيد...

وكانت البدايات الأولى لعصر القرآن هي إبطال الخرافات والأساطير حول الخالق وما صنع الخالق.

كما كان الكسب العظيم حين فجر القرآن ثورة ضد السحر والشعوذة والتدجيل ليحل محلها عصر الفكر والنقاش والجدل، بالتي هي احسن «قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين».

إنه العصر الذي وإن تباطأ فيه الناس حتى ولجوا أبواب العلم الواسعة لبعض مئات السنين إلا أنهم كانوا منكبين حالئذٍ على اعجازه اللغوي مندهشين بنهجه وأسلوبه العظيم ذي السمت الإلهي الذي ما أن سمعه الجن حتى قالوا إنا سمعنا قرآناً عجيباً... وما ان سمعه الانس حتى قالوا: «والله إن لقوله لحلاوة وان عليه لطلاوه وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه ليعلو ولا يعلى عليه».

صحيح كل ذلك كان في البداية مضافاً اليه نهجه الأخلاقي القيّمي الذي أبهر الألباب فوضع الناس في صف واحد سواسية كأسنان المشط، مفجراً عصر الشورى والديمقراطية «في الحكم» والعدل في الحقوق والواجبات، ناهيك عن زرع القيم والاخلاق...

ولكنه كان بحق مفجراً لعصر العلم والفكر مشجعاً عليهما، ومتحدياً في مجالهما حين يكون التحدي هو زمانهما...

وإلا كيف يوجه هذه الآية ولمن!؟؟

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ... ﴾ [الحج٧٣].

وهل المقصود بها المجتمع الجاهلي ، الذي لم يسمع عن الصناعة شيئاً ولا عن الخلق أشياء أم لأولئك الذين وطئت أقدامهم العتبات الأولى لأرض القمر، انها لهم، وللإنسان بالغاً ما بلغ والذي لن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولاً، لا يفهم مما نقول أننا دعاة جهل وظلام ولكننا دعاة حقيقة كل الحقيقة، لا نصفها، كان أملنا، وهو يصعد الإنسان عالياً، أن تصعد معه قيمه وأخلاقه، لا أن تصل به نفسه ليقول أنا ربكم الأعلى فيقول لهامان وأمثاله:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ... ﴾ [القصص٣٩].

كما هم فراعنة هذا الزمان الذين يقولون اليوم بغرورهم العلمي قولة فرعون بالأمس فالمقصود إذن هو التحدي في زمن التحدي لأنه معجزة في كل الأزمان .

ولا يُفهم الإعجاز ومنعاه إلا في زمنه ووقته المناسب: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ وها هو الحين المناسب لأن نعلم نبأه وإعجازه العلمي...

هذه هي سمة القرآن الرئيسية ، تبقى ناصعة ، جلية في كل زمن ولكن ما نود الحديث عنه هنا هو التركيز على النهج العلمي الإيماني للقرآن فقد قلنا ومازلنا نقول إن القرآن هو الذي فتح باب النقاش والمشاورة والجدل القائم على البرهان وهو الذي دعا إلى إعمال الفكر والعقل واستخدام الحواس لأنها طاقة فعالة لاكتساب المعرفة، وهي لصيقة بحياة الإنسان تلازمه أينما ذهب وكيفما اتجه انها الحواس التي وجدت لشيء ولمهمه ومهمتها شاقة وكبيرة تتسع لقضايا وحيثيات الكون وإن كان عظيماً فقيمتها وقدراتها أعظم:

## أهمية الحواس في اكتساب المعرفة

فالعين الإنسانية مثلاً تمثل النافذة التي يطل منها الفكر أو العقل الإنساني على الكون،

ليرى ويلاحظ ويتأمل قال تعالى: ﴿**سَنُرِيهِم آيَاتِنَا فِي الآفاقِ وَفِي أَنفُسِهِم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُ الحَقُّ**﴾ [فصلت٥٣].

وقال:﴿**قُل سِيرُوا فِي الأَرضِ فَانظُرُوا كَيفَ بَدَأَ الخَلقَ**﴾ [العنكبوت١٩]..

وقال: ﴿**فَلْيَنْظُرُ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ**﴾ [عبس٢٤].

وقال: ﴿**أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيفَ خُلِقَت وَإِلَى السَّماءِ كَيفَ رُفِعَت وَإِلَى الجِبالِ كَيفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الأَرضِ كَيفَ سُطِحَت..**﴾ [الغاشية١٦-١٩].

وقال أيضاً: ﴿**أَوَلَم يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيءٍ**﴾ [الاعراف ١٨٥].

الآيات المذكورة قد لا تعني شيئاً لأولئك العاديين من الناس اللهم إلا أنها آيات قرآنية تحفظ في الصدور وإن لم يكن كذلك ففي المصاحف « والمصاحف على الرف» وإن لم يكن كذلك أيضاً فهي في الزوايا والأركان لا يمسها إلا المطهرون...

ولكن للإنسان العامل العالم البعيد عن التعصب تعنى الشيء الكثير، والنظر في زمن الجاهلية إلى الأرض والسماء والطعام، و الخلق يختلف عن النظر في زمن العلم... طبعاً بالعين المجردة وبالعين غير المجردة «الميكرسكوب» إن هذا يعني بلا شك التجربة والملاحظة، واستعمال الحواس الأخرى للوصول إلى الحقائق الكامنة في هذا الكون للتعرف على الأسرار الحقيقية له والاطلاع على النواميس والقوانين التي تحكم سريان هذا الكون وهو ما يكشف أسبقية القرآن في الدعوة إلى ولوج مجالات العلم التجريبي الذي تلكأت الانسانية في الوصول اليه، زمناً طويلا.

وهكذا نرى أن الإنسان مطالب وبالنص القرآني إلى ولوج أبواب العلم والمعرفة من شتى وسائلها دون قيد أو شرط بل بالعكس وضع الخطوط الأولى والعريضة للمنهج العلمي الإنساني وأغلب النداءات الموجهه للإنسان فيها تشجيع على أن يفكر في صنعة الله العجيبة منبهة إلى الحشد الهائل من الوسائل والإمكانيات التي تؤهله لهذا العمل العظيم.

﴿**أَفَلَم يَسِيرُواْ فِي الأَرضِ فَتَكُونَ لَهُم قُلُوبٌ يَعقِلُون بِهَا أَو آذَانٌ يَسمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعمَي الأَبصَارُ وَلَكِن تَعمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ [الحج٤٦].

حتى الاعمى، الذي فقد نعمة البصر قادر بتلك الإمكانات المسخرة أن يثري الفكر

الإنساني فانها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور، فالقلب حقيقة هو النابض بالفعل وإن لم نقل مركز الفعل والنشاط، ففيه بث الأمل واستقرار الإيمان وإلا لما قال، ﴿**أفلا يَتدَبَّرُونَ القُرآنَ أم عَلَى قُلُوبٍ أقفالُها**﴾ [محمد ٢٤] وفي آية أخرى ينعى القرآن على أولئك الذين تقوقعوا وتكاسلوا عن استخدام النعم المسخرة لهم فيقول: ﴿**لَهُم قُلُوبٌ لاَ يَفقَهُونَ بِهَا .. وَلَهُم أعيُنٌ لاَ يُبصِرُونَ بِهَا وَلَهُم آذانٌ لا يَسمَعُونَ بِهَا .. أُولَئِكَ كَالانعَامِ بَل هُم أَضَلٌّ .. أُولَئِكَ هُم الغَافِلُونَ**﴾[الأعراف ٧٩].

ونعمة السمع والبصر والفؤاد كبيرة وأورد القرآن آياتٍ كثيرة على ذلك ﴿**وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمعَ وَالأَبصَارَ وَالأَفئِدَةَ لَعَلَكُم تَشكُرُونَ**﴾ [النحل٧٨].

وقال:﴿ **إنَّ السَّمعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنهُ مَسئُولاً**﴾ [الاسراء٣٦].

وهكذا نرى أن السمع والبصر والفؤاد لهم الفضل كل الفضل في حياة الإنسان.. واهتمام القرآن بها لفت انتباه الانسان إلى أنها وسائل عظيمة لاكتساب العلم والمعرفة كيف لا وما انفك القرآن عن القول:﴿**أَفَلَم يَنظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوقَهُم كَيفَ بَنَيناهاَ وَزَيَّنَّاهَا وَمَالَهَا من فُرُوجٍ**﴾ ولا يتأت ذلك إلا بإعمال العقل والسمع والبصر والقول ﴿**قُل سِيرُواْ فِي الأَرضِ فَأنظُرُوا كَيفَ بَدَأَ الخَلقَ...**﴾[العنكبوت١٩].

وبوسائل الحس التي أشار إليها القرآن بدأ عصر للعلم جديد، قائم على النظر والملاحظة والتجربة والترصد، وإلا لِمَ لَمْ نر مثل هذا التقدم العلمي الذي نلحظه هذه الأيام من قبل عند أتباع سائر الديانات وقد أعطيت لهم الفرصة لذلك ولمئات السنين، دون أن نرى شيئاً مثل الذي نراه.... ألا يدل ذلك على أن ينبوع العلم لم يتفجر إلا بانبلاج عصر القرآن، الإسلامي...

ولا يشك إثنان أن التقدم الذي تحرزه أوروبا الآن لم يكن ليتم لو لم تضع أسسه دولة الإسلام بمفكريهاالأوائل الذين أرسو اللبنات الأولى للتقدم العلمي الإنساني.

وللعلم إن أغلب الذين آثروا الفكر الإنساني بالعلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية من العرب والمسلمين نعم كان اكثرهم ممن قرأ القرآن أو حفظه غيباً، الأمر الذي ساعد البشرية على الانتقال من عهود الظلم والظلام والجهل والجهالة إلى عهود العلم والتعلم الممزوج بترياق الخلق والإيمان... والمتأمل الحيادي يرى ذلك جيداً... فملايين السنين من عمر البشرية

لم تكوّن تراثاً علمياً مثل الذي تكون في مئات السنين الأخيرة، ألا يعني ذلك أن عصراً جديداً وعقلانيا بدأ ينبلج بانبلاج عصر القرآن وظهور شمس الإسلام.

ونظرة سريعة على تقدم العلوم نرى أن القرن السابع عشر والسادس عشر شهدا تقدماً ملحوظاً في علم الفلك وأن القرن التاسع عشر شهد تقدماً ملحوظاً آخر في العلوم الجيولوجية وأما القرن العشرين فيشهد تقدماً ملحوظاً في التكنولوجيا وغزو القضاء، الأمر الذي يبرز أن القرن العشرين يقطف ثمار القرون الأولى .

## مهمة العقل في اكتساب المعرفة

ويأتي العقل وتأتي مهمته ، فهو مناط التفكير ، لا بل هو أساسه وما السمع والبصر والفؤاد والحواس الأخرى إلا عوامل مساعدة منها ما هو لجمع المعلومات ومنها ما هو لبث روح العمل والمثابرة والتشجيع على الوصول إلى الحقيقة، إن كانت علمية فلها وإن كانت إيمانية فلها... أيضاً، وأن العمل بحرية وانطلاق، الذي اتفقنا عليه باديء ذي بدء، لن يوصل إلا إلى الحقيقتين المتلازمتين الحقيقة العلمية والحقيقة الإيمانية.

وفضل العقل كبير في مسيرة الإنسان فلولاه لاستوى أمره وأمر الحيوان، والأعمال التي حشدت من أجل العقل كثيرة ولا نهاية لها، الامر الذي يختلف فيه العقل عن الحواس الأخرى فنطاق المهمة العقلية يتسع لأسرار النفس كما يتسع لأسرار الكون قال تعالى: ﴿**وَاختلاف اللَّيل والنَّهار وَما أَنزَلَ اللَّهُ منَ السَّماء من رزق فَأَحيا به الأَرضَ بَعدَ موتها وَتَصريف الرِّياح آياتٌ لقَوم يَعقلُونَ**.... ﴾ [الجاثية٤].

وقال: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم اللَّيلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمسَ وَالقَمرَ وَالنُّجُومُ مُسخَّرات بِأَمره إِنَّ في ذَلكَ لآيَات لقَوم يَعقلُونَ**﴾ [النحل ١٢].

ويقول أيضاً: ﴿**وَفي الأَرض قطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ من أَعناب وَزَرعٌ وَنَخيلٌ صنوانٌ وَغيرُ صنوان يُسقَى بماء واحد وَنُفَضِّلُ بعضَها عَلَى بَعض في الأُكُل إِنَّ في ذَلكَ لآيات لقَوم يَعقلُونَ**﴾ [الرعد٣].

هذا هو الخط السليم لإكتساب المعرفة والعلم لا بل هو الأساس السليم للفكر الحيادي الحر، الذي سيصل بصاحبه إلى شاطيء الأمان الدنيوي والأخروي، نظر وتأمل في الافاق والأنفس وملكوت السموات والأرض وتدبر وتعقل واستنتاج ومن ثم الاقرار بالحق اليقين،

فالإنسان بعقله وحواسه قادر على استجلاء نواميس الكون وآياته ويبقى الغيب مهمة قرآنية لا ينازعه في أمرها أحد.

## مهمة القران في إكتساب المعرفة

ومنهج القرآن في اكتساب العلوم والمعرفة يظهر أن المعرفة حق طبيعي للإنسان» أينما كان وفي جميع الأزمان.

فما دام الإنسان يكتسب المعرفة والعلوم بالحواس عن طريق الملاحظة والتجربة، وبالعقل عن طريق التأمل والتفكير والاستنتاج يضاف إلى ذلك مسخرات الكون وحيثياته.

فما دام الإنسان يكتسب العلم والمعرفة عن طريق تلك الوسائل والإمكانيات وهي كلها لحسن الحظ، بإمكان الجميع امتلاكها وكما هي أجزاء لا تنفصل عن الإنسان فإن ذلك يعني أن المعرفة مهيأة للجميع لأن الجميع يملك العقل والحواس ومسخرات الكون وإمكانياته، تحيط بالجميع وتؤثر في الجميع ، ولا يستطيع كائناً من كان، أن يكون بمنأى عن نور الشمس والقمر وأثرهما في الحياة أو الليل والنهار، أو السماء والأرض، أو الشتاء والصيف، أو البرق والرعد، والسحاب والمطر، والحيوان والنبات، فكل تلك المسخرات الكونية تؤثر في الإنسان ويتأثر بها الإنسان ، ولكي يستخدمها الاستخدام الأفضل لا مناص له من دراستها حتى يسهل عليه تطويعها لغاية في نفسه وفي خضم هذا الحشد الهائل من الإمكانيات والوسائل من المعلومات والقضايا يرى الإنسان نفسه مدفوعاً دفعاً بالبحث فيها والتطلع إليها، بدافع غريزي فهو مجبول أصلاً على غريزة حب الاستطلاع لذا كل شيء فيه مهيأ أصلاً من أجل اكتساب المعرفة والعلوم، وهكذا هو مرسوم ومصور بدقة واتزان، في داخل النفس «العقل، والحواس، وحب الإستطلاع، وفي خارج النفس آفاق الكون وأسراره وإيحاءاته، يضاف إلى ذلك القرآن لتكتمل الصورة أكثر فأكثر وكيلا يكون للإنسان حجة على الله ولترفع الصحف وتجف الأقلام وتتسق لوحة الكون وتكتمل وتتفق آيات الكون والطبيعة مع آيات أعظم كتاب في قوله:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت٥٣].

فكان القرآن مصدقاً لآيات الكون وما بين يديه من الكتب السماوية، من ذلك نرى، أن المنهج الحياتي لاكتساب العلوم والمعرفة قد تكامل بنزول القرآن، والمنهج الحياتي ولا شك

يقسم إلى قسمين مادي، وروحي، وإن كان الاهتمام الاكبر للقرآن، لترجيح كفة الجانب الروحي إلا أنه قد اهتم بشيء من التعميم في الجانب المادي، كيف لا وهو آخر الكتب واكملها إذ أعطى للعقل مهمته في الحياة وحين يفشل العقل في الوصول إلى الحقيقة يقف له بالمرصاد مصححاً وهادياً ومرشداً أو رادعاً دينياً حين يكون لا مناص من الردع، وبذا تكون الوقاية ويكون العلاج.

أما مهمته في الجانب العلمي فإنه وإن رسم الخطوط المثلى والمنهج الكامل الشامل لإكتساب العلم والمعرفة بشتى صنوفها معتمداً على الإمكانيات الطبيعية المسخرة للإنسان سواء الذاتية منها أو الخارجية إلا أنه اشترك مع العقل بحسم الكثير من القضايا المهمة التي بقيت ردحاً طويلاً من الزمن بين أخذ ورد ودون حسم، سيَّما حين كان العقل يعمل وحيداً دون هداية أو إرشاد، أو حتى وهو معطل في ظل الهداية والإرشاد، فكم من السنين مرت على قصة الخلق ووجود الخالق، وظواهر المطر والسحاب، والبرق والرعد، دون أن تجد لها رأياً حاسماً يقطع بحقيقتها، ليس ذلك وحسب بل هناك حقائق كونية لم يبت بها أحد إلا القرآن مثل الغيب والابتداء والانتهاء، فهل نبقى مكابرة وعناداً نؤمن بالخرافات والاساطير كيلا نقحم الكتب المقدسة في العلوم وهل هناك فاصل بينهما وإن كان من شيء بينهما فلا أرى إلا التناسق بين آيات الله في الكون وآيات الله القرانية.

كم من المرات اختلف العلماء حول كروية الأرض والقرآن ها هو يقول: ﴿**والأرض بعد ذلك دحاها**﴾ و الشمس ودورانها وهي في القرآن ﴿**تجري لمستقر لها**﴾ كما هي والقمر... ﴿**كل يجري لأجل مسمى**﴾....

# الظاهرة القرآنية

## أولاً: القرآن وقصة الخلق

إن القرآن وإن كان كتاب هداية وارشاد بالدرجة الأولى إلا أنه وحتى يبقى معجزاً في كل زمان وصالحاً في كل مكان ... لم يكن بمنأي عن ظواهر الكون وأسراره، وهي التي تخص الجانب العلمي من الحياة بل ناقش الكثير من القضايا التي بقيت زمناً طويلاً معلقة دون حسم وكثيراً ما أشار ويشير إلى أن تلك القضايا لها علاقة ما بالقضية الإيمانية، وعلاقة ما أخرى بالقضية العلمية وقبل أن نخوض بأي منها، هنا ، علينا أن نبدأ بأنفسنا «وفي أنفسكم أفلا تبصرون».

فمن بين القضايا التي أشار اليها القرآن وحسم الرأي فيها هي قصة خلق الإنسان من بدايتها... وبأسلوب أمثل... إلى نهايتها.

فالقرآن أولاً وقبل كل شيء ناقش قصة الخلق باسلوب إيماني عقلاني متكامل تجبر الإنسان على الاعتراف بالحقيقة التي يصل إليها، بعكس أولئك الذين ناقشوها على أساس مادي حسي محدود، فإن هم وصلوا إلى شيء فلن يصلوا إلا إلى نتائج مادية منظورة تليق بمفهومهم المادي للحياة...

فدارون مثلاً حين اتجه بالباخرة هيجل وجاب بها الأمصار والبقاع لجمع المعلومات ومن ثم ليضع أساساً صحيحا لقصة الخلق كان ينقصه إدراك شيء هو أن الأسلوب المادي في البحث ولا سيما في هذه الامور الموغلة في القدم وربما تندرج في سلسلة الغيبيات... لن يصل إلا إلى نتائج مادية ناقصة، ونحن لا نطلب منه إزاء ذلك الشيء الكثير، أي أكثر مما وصل، فأنى له أكثر من ذلك ، وايحاءات القرآن . عن ذلك ، لا يملكها... فقد أكتفى بالمعلومات المادية للوصول إلى الحقيقة فحين رأى إنسان المناطق الجليدية سميناً اكثر من إنسان المناطق الصحراوية أو المناطق المعتدلة أي رأى الإنسان متوائماً مع الطبيعة ، أدرك بالفكر المادي أن الطبيعة تخلق الإنسان وتطوره بكيفيتها هي ودون قوة عليا يرجع اليها

الفضل، في ذلك التوازن العظيم في الخلق.

لذا قال بالنشوء والإرتقاء، التلقائي للخلق، أي تسلسل الإنسان من الأدنى إلى الأعلى أي مر بمراحل تطورية نوعية طويلة قبل أن يصل إلى صورته المثلى ، وهي المراحل الحيوانية المختلفة حتى الطبيعة ذاتها خلقت نفسها بنفسها وهو الذي لا يعقل أن يكون، اللهم إلا في عقول الملحدين من أمثاله.

والحقيقة نحن هنا لسنا بصدد نقد نظرية دارون في الخلق فالنظرية كما جاءت انتهت وإن حطّب حولها الكثيرون وما زالوا يحطبون إلا أن ذلك من باب الشيء بالشيء يذكر.

أما الذي نحن بصدده هو هذا الإعجاز العظيم للقرآن ولا سيما ما سنراه ونحن نعرض رأي القرآن في قصة الخلق الأمر الذي أعجز كل المفكرين عن الإتيان برأي حاسم من مثل الذي أتى به القرآن لأن رؤى أولئك ، رؤى علاقات مادية بحتة لا تدرك خلفيات المادة التي هي من علم الغيب فالخيط الخفي الموصول بالخيط المادي لقصة الخلق لا تتأتى معرفته إلا بالقرآن لأن العمق الزمني للقرآن ، يطال ذاك الخيط الخفي بل والخيط الآتي للحياة.

أما أن نمسك بالخيط الذي أنتهى إليه دارون في الخلق ونوصل فكرنا بفكره فإن ذلك سيضعنا في خضم الظلمة التي أدت إلى التوهان الطويل للإنسان حول سيرة الخلق الأولى وهو الأمر الذي سيؤدي بنا ولا محالة نحو هاوية الشرك والإلحاد... التي إنحدر اليها البعض....

لذا كان القرآن ضرورة حتمية في فهم قصة الخلق كاملة، لأنه يطالها من جذورها، حتى معجزات الخلق ، من خلق آدم بغير أبوين وحواء من غير أم، وعيسى من غير أب، كلها يكشف عنها بإشارات واضحة يقبلها العقل والمنطق بحيث ينهي وإلى الأبد اللغط الذي دار حول فكرة الخلق.... وهو الذي أدركه الكثير من المفكرين الباحثين عن الحقيقة، فرجعوا القهقرى يفتشون عن أول كلمة قيلت بهذا الإتجاه العقلاني وإذا بهم ينهلون من منابع الفكر الإسلامي.

## بداية الفكر العقلاني حول الخلق

ومن ثم إستنتج أولئك أن الطبيعة لم تخلق شيئاً ولا هي قادرة على فعل ذلك...

صحيح أن ذلك كان يمثل تقدماً ملحوظاً في الفكرة التطورية لخلق الإنسان ولكن بدأ

الاختلاف بعد ذلك حول ماهية آدم الأرضي... وآدم العلوي طبعاً لاختلاف الآراء والمصادر... فالبعض قال إن آدم الذي ورد ذكره في القرآن هو نفسه الذي هبط إلى الأرض، ولا فرق بين الإثنين، اللهم أن موقفه في الملكوت الأعلى كان نقياً وحتى باشر الخطأ والخطيئة هبط إلى الملكوت الدنيوي عقاباً له على فعلته وأما البعض الآخر فقال إن آدم الدنيوي هو صورة لآدم العلوي ليس إلا... لأن صفات آدم الأولى كانت تختلف كلياً عن صفات آدم الثانية، لأن الموقفين مختلفان ... الأول روحاني والآخر... مادي ، كان في الأول معصوماً ومؤهلاً للجنة... وأما في الثاني فكان مؤهلاً للخطأ والصواب وللفرز في النهاية لأنه في محك الاختبار..... صحيح أنه يحمل الوسائل والإمكانات التلقائية الوقائية الهادية، مثل العقل والتفكير وغيرهما إلا أن ذلك لا يمنع أن يخضع لوساوس الشيطان التي خضع لها وهو في كامل صورته، وهذا النفر من المفكرين اعتمد على قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحسَنِ تَقوِيمٍ ثُمَّ رَدَدنَاهُ أَسفَلَ سَافِلِينَ**﴾ حتى أن البعض ذهب به الخيال إلى أن آدم الأرضي الدنيوي بدأ يشق حياته كجرثومة مائية شأنها شأن الحيوان المنوي ولكن هذه كاملة الصفات ، للتكاثر التلقائي وتطورت هذه إلى سلسلة من الحيوانات ومرت بمرحلة القرد حتى تطورت ووصلت إلى مرحلة الإنسان وأيد ذاك القول الكثير من المفكرين المعاصرين اما طنطاوي جرهري في تفسيره فيقول: إن تلك المراحل يمر بها الجنين قبل أن تكتمل صورته النهائية... وقبل أن يهبط من بطن أمه إلى الأرض يحيى خلقاً من بعد خلق... والحقيقة، ليس هدفي أن أعرض ما ذكره فلان أو علان عن الخلق، بقدر ما أهدف إلى إظهار عظمة القرآن وإعجازه العلمي، وقدرته في كل زمان ومكان أن يتحدى ويتحدى، لا في زمن الجاهلية بل وفي زمن العلم أيضاً، فأنا في الواقع لست عالم طب أو كيمياء أو أحياء لأصول وأجول في هذا المقام ، ثم لأقرر برأي حاسم ولكن نذرت نفسي لأخدم هذه الأمة العظيمة وذلك بالكشف عن جوانب العظمة في فكرها وحضارتها ومعجزتها القرآنية لأن الهزيمة التي حاقت بنا شاملة تطال الفكر الحضاري لأمتنا ناهيك عن الأرض والوطن ، فأن نؤسس كياناً عقائدياً متيناً على أسس وأساسات متينة لأحسن ألف مرة من أن نقوم بعمليات جراحية لترقيع الكيان المنهار وما نجح اليهود في تأسيس دولتهم إلا بعد أن اعتقدوا جميعاً بمقولة دينية «أنهم شعب الله المختار» وكان الاحرى بنا ونحن خير أمة أن نفعل ذلك... ولا أريد أن أطيل في هذا المجال لئلا نتوه ونبتعد عن الموضوع الأساسي وهو فكرة الخلق الأولى للإنسان: ومن أين جاءت وكيف وإلى أين؟ لأن ذلك تكمن فيه

جوانب علمية وجوانب ايمانية ساعتها ندرك أن حقائق كثيرة أعجزت الإنسان عن ادراك كنهها يمكن أن نصل إلى حقيقتها الجازمة الكامنة في ثنايا آيات القرآن، الأمر الذي يؤكد الحقيقة الكبرى في إعجاز القرآن المطلق عبر الأزمان وهذا الذي نفعله مطلب قرآني باديء ذي بدء.

قال تعالى: ﴿**سَنُرِيهِم آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُ الحَقُّ**﴾ [فصلت٥٣]... وقال: ﴿**وَفِي أَنفُسِكُم أَفَلاَ تُبصِرُونَ**﴾ [الذاريات٢١] وقال: ﴿**قُل سِيرُوا فِي الأَرضِ فَانظُرُوا كَيفَ بَدَأَ الخَلقَ**﴾ [العنكبوت١٩].

## النشأة الأولى في السماء

فكانت البداية حين قال تعالى للملائكة:

﴿**وَإِذ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ**﴾ [ص٧١]

وفي مكان آخر يقول:

﴿**وَإِذ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن صَلصَالٍ مِن حَمَأٍ مَّسنُونٍ**﴾ [الحجر٢٨].

وعلى هذا كانت نشأة آدم الأولى من الطين كما رأينا ومما نراه في الآيات الآتية نوردها بحيث نؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن الذي توصل إليه العلم كان موجوداً في القرآن منذ أربعة عشر قرناً الأمر الذي يدلل على إعجاز القرآن العلمي في مجالات الحياة الأساسية التي تشكل المباديء وكليات الحياة..... قال تعالى:

﴿**وَلَقَدْ خَلَقنَا الإِنسَانَ مِن صَلصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَّسنُونٍ**﴾ [الحجر٢٦].

﴿**وَبَدَأَ خَلقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ**﴾ [ السجدة٧]

﴿**فَإِنَّا خَلَقنَاكُم مِن تُرَابٍ**﴾ [الحج٥]

﴿**وَمِن آيَاتِهِ أَن خَلَقَكُم مِن تُرَابٍ**﴾[ الروم٢٠]

وإن كان في تلك الآيات سبق وإعجاز علمي لم يصل إلى حقيقته الإنسان إلا بعد تعب ولأي شديدين في حين كان بمنأى عن مفاهيم القرآن وآياته.

إلا أن في الأمر غرضاً أساسياً طافياً على السطح لا مناص لنا من ذكره وهو أن البداية

واحدة، والخلق واحد، والسلالة واحدة، إذن، الناس سواء في الحياة لا فرق بين كبير أو صغير أو حاكم أو محكوم أو عبد أو سيد فالكل من طينة واحدة وتربة واحدة.... لا بل من سلالة واحدة وهي سلالة الطين.

﴿**وَلَقَد خَلَقنَا الإنسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِن طِينٍ**﴾ [ المؤمنون١٢].

وبعد أن تمت تسوية الطين وتكاملت صورته النهائية تأتي المرحلة الثانية الأمر الذي يدلل على أن فكرة التطور في الخلق كانت مذكورة في االقرآن قبل أن يصل إليها العلم.

## نفخ الروح

قال تعالى: ﴿**فَإِذَا سَوَّيتُهُ وَنَفَختُ فِيهِ مِن رُّوحِي**﴾ [الحجر٢٩].

وهكذا كانت المرحلة التالية هي النفخة الإلهية أو القوة الإلهية، وهي الحلقة المفقودة في علوم وآراء الملحدين الماديين وللأسف هم يقولون لنا كذا ونحن نردد ما يقولون ونؤمن به خيره وشره... ناسين أن الحلقة الأولى والرئيسية تنقص تفكيرهم، كيف لا وهي أصلاً غير موجودة.

لذا لا يجوز أن نأخذ منهم ونقلدهم في كل شيء وإن أخذنا فلا مناص لنا أن نطعّم ما نأخذ بالفيض الروحي الإلهي حتى نكون خير أمة.

وعلى هذا فإن وراء الخلق قوة خارقة مبثوثة بذورها في ذات الإنسان وإن لم يشاهدها أو يراها رأي العين فلا يعني أنها غير موجودة ولكن يمكن إدراكها بملاحظة القوى والآثار الكونية الخارقة التي لا يدركها الإنسان ولكنها تؤثر عليه، مثل القوى الكهربائية والالكترونية والمغناطيسية فالإنسان لا يعرف ما هيتها انما فقط يدرك الآثار ويعرف الكميات كما يعرف العلاقات».

نفس الشيء حين بث في ذات الإنسان «الصلصال» نفحه من روح الله أصبح فيه طاقة روحية لا تحدها حدود من الإدراك والإحساس والتفكير والحركة..... الخ هذه الطاقات المبثوثة في ذات الإنسان تشبه مع اختلاف «نوع الطاقات» الطاقة الروحية للكون التي تتمثل بالقوى الكهربائية والمغناطيسية... والحرارية وغيرها من القوى الكونية المؤثرة...

وبعد أن تكامل آدم المخلوق ﴿**قُلنَا لِلمَلاَئِكَةِ اسجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبلِيسَ أَبَى وَاستَكبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ**﴾

﴿وَقُلنَا يَا آدَمُ اُسكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ وَكُلا منهَا رَغَداً حَيثُ شِئتُمَا وَلاَ تَقرَبَا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيطَانُ عَنهَا فَأَخرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾.

﴿وَقُلنَا اهبِطُواْ بَعضُكُم لِبَعضٍ عَدُوٌّ وَلَكُم فِي الأَرضِ مُستَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة ٣٤-٣٦].

والمرحلة المذكورة من حياة الإنسان لا يدركها أحد فكيف نطلب الحقيقة من غير القرآن..

إذ ما من أحد شهد النشأة الأولى

﴿مَا أَشهَدتُّهُم خَلقَ السَّمواتِ وَالأَرضِ وَلاَ خَلقَ أَنفُسِهِم وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُداً﴾ [الكهف ٥١].

فكيف نحن، أيضاً ، نتخذ المضلين من المنكرين الماديين عضدا ليساعدونا في الكشف عن كامل الحقيقة التي لا يدركها أحد «إلا بمعونة القرآن» وبما أن هذه المرحلة «المذكورة» لا تقاس بالمقاييس المادية لأنها تأتي فيما وراء المادة، ووراء الأشياء فإن الذين حطّوا حول فكرة الخلق كانت تنقصهم الأساسات الأولى للخلق والتي لن ترى أو تدرك بذات القدر الذي لا يرى فيه الله أو يدرك لأنها تمت واكتملت في ملكوت الله السماوي.... وأما أولئك القادرون على أن يكشفو حقيقتها فهم المؤمنون بالغيب الذي نص عليه القرآن.

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِن رَبِّهِم وَأُولَئِكَ هُمُ المُفلِحُونَ﴾.

والحيرة الكبرى التي وقع فيه الناس عن سيرة الخلق هي حين هبط آدم أي بداية آدم على الأرض وتشابه الأمر في ذلك على الخلق وأدلى كثير منهم بدلوه فكانت النتائج متفاوته وأحياناً متضاربة، لأن ما من أحد شهد المشهد الثاني للخلق وهو المشهد الأرضي... فالسماوي ذكر في القرآن بجلية ووضوح أما المشهد الأرضي فذكرت عنه إيماءات وإشارات ليست مدركة كما يجب فمنهم الذي قال أن الإنسان «آدم» الذي هبط إلى الأرض كما جاء في القرآن لم يهبط بصورته الأولى ولكن هبط بصورة أخرى عقاباً على فعلته حين سمع هتاف الشيطان فمنهم الذي قال هبط على صورة جرثومة عاشت في البحار وتشكلت ومرت بمراحل هي الأخرى كثيرة ومنهم الذي قال على صورة بذرة في الأرض ومنهم الذي قال على صورة قرد عقاباً على فعلته وخطيئته ولكن سنعتمد على القرآن في

تصورنا القادم.

## النشأة الثانية على الأرض

إذ بتضافر جهود العلم الحقيقي مع وحي القرآن وومضاته يمكن أن نضع خيطاً حقيقياً مضيئاً يصلنا بقصة الخلق الحقيقية وسنرى أن تفوقاً واضحاً يحرزه القرأن لا العلم في هذا المجال.

ولا يشك اثنان عاقلان، أن الأرض لم تكن موجودة وآدم في السماء وإنما حصل الوجود الأرضي لضرورة اقتضتها ورأتها، أوامر السماء الالهية فالسماء والأرض كانتا رتقاً لا إنفصال بينهما وهذا يمكن استبيانه بالنص القرآني ﴿**أَوَلَم يَرَ الَّذينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّموات وَالأَرضَ كَانَتَا رَتقاً فَفَتَقناهُما . . . وَجَعَلنَا منَ المَاءِ كُلَّ شَيءٍ حَيٍّ**﴾ [ الأنبياء ٣٠].

أما الضرورة التي اقتضت إنفصال الأرض عن السماء هي حمل آدم في رحمهابعد أن تاب عليه ربه مسخراً له بقاءاً جديداً وحياة جديدة يضعه خلالها محك الإختبار ولا مناص من ذلك حتى يتزود وهو هابط من رحم السماء إلى رحم الأرض بكل ما يستلزمه البقاء على ظهر الأرض من ماء وهواء وغذاء لذا كان هبوط آدم إلى الأرض ومع الأرض في آن واحد لإستنباته فيها كما يستنبت الكائن الحي في رحم البيضة «الدحية» والآيات الدالة على ذلك : ﴿**هُوَ أَنشَأَكُم منَ الأَرضِ**.....﴾ [هود٦١].

وفي آية أخرى ﴿**وَاللَّهُ أَنبَتَكُم منَ الأَرضِ نَباتاً**﴾[نوح١٧].

والإنبات للبذرة الإنسانية الأولى على الأرض مرت بعدة أطوار ﴿**وَقَــدْ خَلَقَكُم أَطوَاراً**﴾ [نوح١٤].

إذن مثلما تشكل آدم في السماء من الماء والطين «التراب» كذلك حصل وهو في رحم الأرض «من الماء والطين» ويمكن أن يكون الشبه قريباً بين الأرض التي نبت فيها آدم الأول والبيضة كما قلنا فهي مكونة من اليابسة ومن الماء شأن الأرض شأن الدحية في ذلك قال تعالى ﴿**وَجَعَلنَا منَ المَاءِ كُلَّ شَيءٍ حَيٍّ**﴾ [الأنبياء٣٠].

وقال عن الشبه بين الأرض والدحية «البيضة».

﴿**وَالأَرضَ بَعدَ ذلكَ دَحَاها**﴾ ﴿**أَخرَجَ منهَا مَاءَها وَمرعَاهَا**﴾ وبعد نشوء آدم على الأرض بدأت الحياة تأخذ الشكل الطبيعي من ظهورالنبات والحيوان والماء وغيرها من

المسخرات التي هيئت بحيث تأخذ الشكل الذي يخدم آدم وبنيه...

وإن نسينا فلاننسى أن مراحل التطور التي مر بها آدم على الأرض هي شبيهة بتلك المراحل التي يمر بها الجنين في رحم الأم والذي سنورده بالشرح في الصفحات القادمة ولكن لا شك أنه تنقل في رحلته الأولى على الأرض بين البر والبحر وكانت السماء طبعاً ترعاه برعايتها وتنبته نباتاً حسناً وهي قادرة على ذلك كيف لا ومثله حدث حين فجرت ماء زمزم لإسماعيل في أرض قاحلة لا نبات فيها وهذا هو التكريم العام لبني آدم الذي ورد في القران:

**﴿وَلَقَدْ كَرَّمنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلناهُم فِي البَرِّ وَالبَحرِ﴾** [الإسراء٧٠].

وهذه الآية صالحة لكل زمان ومكان حيث كرم آدم حين هبط إلى الأرض وتنقل بين الطين والماء وكرم أبنه وهو يتنقل الآن بوسائل المواصلات في البر وبالسفن في البحر وذلك بفضل نظام وقانون الطفي الطبيعي.

## الإعجاز في الخلق أوالخارق للعادة

وبعد ذلك جاءت حواء وكان خلقها من آدم بمثابة معجزة أخرى في الخلق لم يوضحها أحد إلا القرآن لأن ما من أحد شاهد النشأة الأولى وكل ذلك ينضوي تحت خوارق الخلق الذي يدلل على وجود الله الذي أنكره الملاحدة والماديون ولحسن الحظ أن مثل تلك الخوارق في الخلق ذكرت في القرآن، مما يدل على أن هناك إعجازاً في الخلق لا يندرج تحت تفسيرات العلم ويمكن أن نأخذ بعض الامثلة من القرآن على ذلك وهو قصة خلق عيسى...

**﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾** [آل عمران٥٩].

فخلق آدم كان بمعجزة حيث خلق من تراب وماء ثم النفخة الإلهية وكذلك عيسى كان خلقه بمعجزة إلهية لا تخضع أو تندرج تحت ناموس الكون وقانون الزوجية الذكر والانثى.

وهو الأمر الذي فزعت منه مريم عند سماعه لأنه خارق للعادة والناموس **﴿قَالَت رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَم يَمْسَسنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخلُقُ مَا يَشاءُ إِذا قَضَى أَمراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾** [ آل عمران٤٧].

وهذه الأمور هي التي توضح الحلقة المفقودة التي أنكرها دارون وغيره فلا الطبيعة قادرة

على خلق نفسها ولا الإنسان قادر على خلق نفسه بنفسه لا بل هو عاجز عن خلق ذبابة فمهما أوتي من العلم فإنه قليل وقليل حين يقارن بعلم الله... لذلك يبقى التحدي قائماً وباقياً ببقاء القرآن. وتأكد هذا في قول الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج٧٣]...

والحالة الوحيدة التي إستطاع فيها الإنسان أن يساهم فيها في هذا المجال هو عيسى حين قال ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِن رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران٤٩].

فكان بمثابة الوسيلة ليس إلا.... وقد اعترف هو بذلك لئلا يصبح مقدساً حين قال ﴿بإذن الله﴾.

## الخلق الخاضع للناموس والقانون العلمي

وتبقى المرحلة الأخيرة من مراحل الخلق وهي المرحلة التي تندرج تحت قوانين العلم أو التي استطاع العلم أن يدرك وضعها ومراحلها وكان القرآن سبّاقاً بالإتيان بها.... وهي خلق الإنسان في رحم الأم: ويقول القرآن عنها....

﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [ألزمر٦].

والظلمات الثلاث هي البطن والرحم والمشيمة وتطور الجنين في رحم الأم ربما يشبه إلى حد بعيد تطوره في رحم الأرض... إلا أن الجنين العادي لا يتأتى إلا بالتزاوج العادي بين الزوجين الذكر والانثى.... أو بالاتصال بين حيوانات التكاثر من كلا الجنسين.

والمرحلة هذه لا ذكر للطين فيها وإنما كل الذكر للماء أما الجوهر والأساس فيبقى دائماً للطين الذي يحوي من المواد والفيتامينات ما يحويه جسم الإنسان كيف لا وغذاء الإنسان اصلاً من تربة الأرض وطينها....!!

والمرحلة هذه هي ملخص مسيرة الخلق وقد انجلت أسرارها الكثيرة للعلم، الأمر الذي كشف إعجاز القرآن في هذا المجال المذكور منذ أربعة عشر قرناً.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيءٍ حَيٍّ﴾ الانبياء آية ٣

وقال : ﴿وَهُوَ الَّذي خَلَقَ مِنَ المَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهراً وَكَانَ رَبُّك قَديراً﴾ [الفرقان ٥٤].

حتى الحيوان

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَاءٍ﴾.

وقطعاً الماء المذكور ليس الماء العادي بل أتى على بعض صفاته.

﴿أَلَم نَخلُقكُم مِن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات ٢٠] واكثر من ذلك وبتفصيل أكثر أوضح مكان خروجه ﴿يَخرُجُ مِن بَينِ الصُّلبِ وَالتَّرائِبِ﴾ [الطارق ٧].

وأما مكان ذهابه واستقراره والزمن المقدر لذلك.

﴿ فَجَعَلنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ إِلَى قَدَرٍ مَّعلُومٍ﴾ [المرسلات ٢١-٢٢] أما الاطوار التي يمر بها الجنين في رحم الأم فيمكن أن نلخصه بقوله تعالى:

﴿وَلَقَد خَلَقنَا الإِنسانَ من سُلالَةٍ مِّن طِينٍ... ثُمَّ جَعَلناهُ نُطفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقنَا النُّطفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقنَا العَلَقَةَ مُضغَةً فَخَلَقنَا المُضغَةَ عِظَاماً فَكَسَونَا العِظَامَ لَحماً ثُمَّ أَنشَأنَاهُ خَلقاً آخَر فَتبارَكَ اللَّهُ أَحسَنُ الخَالِقِينَ﴾ [المؤمنين ١٢-١٤].

ويقول طنطاوي جوهري في تفسيره الجواهر..... إن الماء المهين في الرحم يمر بدرجات مختلفة من النظام الحيواني: الأولى الجراثيم النقاعية، ثم علقة ثم يصير مثل الضفدع، ومن ثم يمر بمرحلة تشبه الطير وبعدها يصبح من ذوات الأربع ـ القرد ، بعد ذلك يقصر الذنب ويختفي وفي الشهر الخامس يكتمل ويفرق بين الذكر والانثى.

وإن صح مثل ذلك في رحم الأم فلا غرابة أن يصح مثله في رحم الارض لان الذي فعل ذلك في رحم الأم هو ذاته الذي فعل مثله في رحم الأرض وهو الذي تشابه على الخلق تفسيره حين قالوا أن الانسان أصله قرد أو مر بمرحلة القرد.

## معنى الروح

ولكن الروح التي يكثر اللغط حولها هذه الأيام أخذت تترى على الألسنه في مناسبات متنوعة، ففي العلم يقال روح العلم ، وفي الإنسان يقال روح الانسان وفي القرآن يقال روح

القرآن ومثل ذلك روح الإسلام حتى أن كاتباً مثل سيد أمير علي وضع كتاباً بهذا الإسم، والحق إن الكلمة تستحق مثل هذا الاهتمام بل وأكثر من ذلك.

ولكن الحق والحق يقال: لم تحدد المعالم العامة لهذه الكلمة إلا عن طريق القرآن والبداية كانت حين جاء رهط من اليهود يحاولون تعجيز الرسول فسألوه عن الروح وما يعلم من أمرها، وهم يعلمون بعد أن أخبرهم أنه بشر لا يعلم من الغيب إلا ما يوحى إليه. وفعلاً نزلت الآية ﴿**وَيَسأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ... قُلِ الرُّوحُ مِن أَمرِ رَبِّي... وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ آية [الإسراء٨٥].

وها هو العصر الذي يتفوق في مجال العلم والقوى الخفية «الالكترونية» وغيرها وللآن لم يأت الناس بأكثر مما أوضحه القرآن وآياته ولنذكر بعضاً منها:

﴿**يَومَ يَقُومُ الرُوحُ والمَلاَئكَةُ صَفّاً**﴾ [النبأ ٣٨]

﴿**تَعرُجُ المَلاَئكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيهِ فِي يَومٍ كَانَ مِقدَارُهُ خَمسِينَ أَلفَ سَنَةٍ**﴾ [ألمعارج٤].

وعلى هذا نرى أن الروح والملائكة في صف واحد ومرتبة واحدة.

وقال: ﴿**وَلاَ تَيأَسُواْ مِن رَّوحِ اللَّهِ.... إِنَّهُ لاَ يَيأَسُ مِن رَوحِ اللَّهِ إِلاَّ القَومُ الكَافِرُونَ**﴾ [يوسف٨٧].

وقال ﴿**وَأَتَينَا عِيسَى ابنَ مَريَمَ البَيِّنَاتِ وَأَيَّدنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ**﴾ [البقرة٨٧]

وقال: ﴿**قُل نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَبِّكَ بِالحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ**﴾ [النحل١٠٢].

وقال: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنذِرِينَ**﴾ [الشعراء١٩٣].

وقال: ﴿**وَأَذكُر نِعمَتِي عَلَيكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذ أَيَّدتُكَ بِرُوحِ القُدُسِ**﴾ [المائدة١١٠].

وقال ﴿**فَأَرسَلنَا إِلَيهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً**﴾ [مريم١٧].

وقال:﴿**يُنَزِّلُ المَلاَئكَةَ بِالرُّوحِ مِن أَمرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ**﴾ [النحل ٢].

﴿**يُلقِي الرُّوحَ مِن أَمرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَومَ التَّلاَقِ**﴾ [ غافر ١٥].

﴿**أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنهُ**﴾ [المجادلة٢٢].

وقمة ذلك كله جاء عن الحياة...

قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ الحجر٢٩]

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم١٢].

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ [ السجدة٩].

وهكذا أعطى القرآن عدة معاني للروح وإن كانت كلها تصب في إطار الرحمة والحق والحياة وإن جاءت بأشكال متعددة...

فروح القدس ، جبريل المخلوق من نور، جاء بالرحمة والبشرى والحياة لمريم.. وجاء بالهداية والحق والحرية لجمل البشرية وإن كان محمد الوسيلة.

ومرة تكون الروح شيء من نور الله او ذاته والتي بها تبدأ مسيرة الإنسان وحياته.

ومرة ثالثة تكون الروح آيات القرآن التي تحمل الرحمة والحق والهداية والنور الذي يضيء درب البشرية كيف لا والقرآن جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.... وبعد ذلك تبقى الروح من أمر ربي... فما أوتينا من العلم إلا قليلا...

## المعنى الروحي للقرآن

وعلى ذلك لا بد أن نبين المعنى الروحي للقرآن:

فالقرآن، يمثل الترجمة الروحية للوجود الإنساني وعلى هذا وإن نُطق بالحروف والآيات والسطور في الاوراق المادية إلا أن ذلك للحفظ ليس إلا... ودليل ذلك أنه يمكن بديلاً عن ذلك كله أن يحفظ في الصدور.

وأما المعاني الروحية للقرآن فتكمن في المثل والقيم والمباديء الروحية السامية التي تشفي الصدور من علل الحقد والغل والحسد والضغينة والكذب والخيانة والاجرام والسرقة والاغتيال والحرص، تلك العلل الإنسانية التي إن دلت على شيء إنما تدل على مطامع أو شهوات تترجم مادياً شأنها شأن الخطيئة الأولى التي ارتكبها الأب الأول والذي هبط من أجل التكفير عنها وهي بحثه عن ملك لا يبلى وإذا به في الخطيئة يقع نتيجة حرصه الزائد ذاك والمعنى الآخر يكمن في إعادة الأمل والثقة والسعادة والتفاؤل والحب بين الناس بالتعاون والتضامن والتكافل بينهم... نعم إعادة كل تلك القيم والمثل إلى النفوس المقهورة من أولئك

المظلومين والضعفاء والمحتاجين والفقراء والمساكين.

ولا يتأتى ذلك إلا بممارسة المباديء الروحيه السامية من مثل الشورى والتشاور والعدل بين الناس والتسامح وبث الحرية في جنبات الأمة ونشر المساواة بين الأفراد .

تلك هي المعاني الروحية للقرآن التي تمثل النور الإلهي الذي يقذف في النفوس إثر ذلك كله، لا بد أن تقع على الإنسان مهمة شاقة إزاء ذلك.... وتضحيات جسام كثيراً ما يرتاح إليها وإن كانت تمثل الزهد والحرمان والتضحية من مثل الجهاد والصيام والبذل والزكاة وغيرها من الإلتزامات إلا أنها تنقي الروح من شوائب المادة.

## حديث الحياة والقيم

ومثل ذلك التفكير لا بد أن يصب في النهاية في مصب واحد مع القيم الروحية والمثل، الأمر الذي يعطي المعنى الحقيقي والروحي للحياة الذي لا بد بالتالي أن يتفرع إلى تفاريع قيمية سلوكية مهما كان الوصول إليها بحاجة إلى تضحيات وكأني بتلك المثل والقيم السلوكية لا تتأتى إلا بمثل تلك التضحيات فمثلاً لكي يحصل الفرد على المواطنية الصالحة لا بد أن يكون ذلك بالجهاد والتضحية في سبيل الوطن.

ولكي يحصل الإنسان على سمة المؤمن الحقيقي لا بد أن يكون ثمناً لذلك ـ الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته فوق ظهر الأرض.

وحتى يحقق الإنسان عملاً صالحاً نافعاً في الدنيا والآخرة لا بد من التضحية بالمال وبذله بدون مغالاة على الفقراء والمحتاجين... الخ.

ناهيك عن الأعمال والتكاليف التعبدية التي تنطوي على التضحية باللذة والراحة والذي لا يتأتى إلا بالصيام وممارسة الشعائر الأخرى... وذلك كله يصب في المبدأ القرآني العظيم الذي جمع فأوعى المتمثل بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ.... تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ.. وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [الصف٩-١٠].

هذه هي التجارة الرابحة برأي القرآن وإن كانت بمجملها تضحيات وتضحيات في سبيل الله والوطن إلا أن ذلك لا يمنع من ممارسة الأمور الحياتية الخاصة بعيداً عن المكر والإستغلال والكذب والخيانة وغيرها من صنوف الرذيلة أو الخداع....

فالعمل ضرورة حتمية لاستمرار الحياة والإنسان فيها محك الإختبار قال تعالى: ﴿**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُواْ فِي الأَرضِ وَابتَغُوا مِن فَضلِ اللَّهِ وَاذكُرُواْ اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُم تُفلِحُونَ**﴾. [الجمعة٩]... ونرى أن العمل صنو العبادة ولكن بشرط عدم المغالاة بحيث ﴿**وَإِذَا رَأَواْ تِجَارَةً أَو لَهواً انفَضُّواْ إِلَيهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً... قُل مَا عِندَ اللَّهِ خَيرٌ مِّنَ اللَّهوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيرُ الرَّازِقِينَ**﴾ [الجمعة ١٠].

فديننا دين السعي والعمل المادي ، ولكنه ايضاً، دين العمل الروحي لذا فهو دين التوازن بين المادة والروح فمن ارتضى بنصيبه الأول فما له في الآخرة من نصيب.

وعلى هذا فإن كلمات: الماء، والغذاء، والنبات، والحيوان، والمال، والبنون، والأرض، والسماء... الخ لا تعني بالنسبة للأغلبية من الناس إلا شيئاً واحداً وهي: أنها حيثيات مادية وجدت في الطبيعة لا لشيء إلا لتحقيق أهداف مادية وحسب.

رغم أن البعض وهم قلة لا يرون فيها إلا كماً مادياً يمكن أن يستشف منها معاني روحية، ليس إلا، وهم الذين زهدوا في تلك الماديات، راضين بالقليل منها الذي يكفي فقط لتحقيق الأهداف الروحية، فكم من القادة المخلصين والرسل والمصلحين أنفقوا أموالهم وجهدهم وحياتهم من أجل الغير، وقضاياهم...

وها هو ذا رسول الإسلام الذي أنفق عمره في سبيل ذلك راضياً من متاع الدنيا بكسرة الخبز، فقط، لسد الرمق ومن الملك راضياً، فقط بغار حراء وحتى زوجته «خديجة» أنفقت جل مالها في سبيل مباديء وقيم روحية تتجلى في إعادة البسمة إلى الفقراء، والمحتاجين وإسعاف المنكوبين وقد تم إخراج المظلومين من ظلمات القهر والتعسف إلى نور الحرية والأمان... هؤلاء، ومثلهم كثير، الذين ضحوا بالغالي والرخيص مما ملكت أيديهم في سبيل الأهداف الروحية التي هي أصلاً خلق الإنسان من أجلها.

وهؤلاء هم فقط وغيرهم من المصلحين والقادة الذين كانوا بحق خير من أدى المهمة التي هبط آدم من أجلها وهم فقط الذين كفّروا عن الذنب الذي ارتكبه الأب الأول «آدم» فكانوا بحق أيضاً أهلاً للاختبار واجتياز الإختبار بشرف وامتياز.

لا أولئك الذين حسبوا الأمور بحسابات مادية بحتة فألهاهم التكاثر في المال والأولاد لتحقيق مآرب واهداف مادية بحته يلفظها الإنسان حال يلفظ انفاسه.

# ثانياً: ظواهر الكون

## نظرة تأمل في ملكوت السماء

﴿أَوَلَم يَنظُرواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَواتِ وَالأَرضِ﴾ [الأعراف١٨٥] وعليه فإن ذلك مطلب قرآني وبناءً عليه نبدأ القول:

قال تعالى في محكم كتابه:

﴿وَمِن آيَاتِهِ خَلقُ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ﴾ [الروم٢٢]

﴿وَمِن آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالأَرضُ بِأَمرِهِ﴾ [الروم٢٥]

فالآيات المذكورة وكثير غيرها ومثلها المبثوث في ثنايا القرآن وصفحاته إن أوحت بشيء، باديء ذي بدء، فإنها توحي إلى أن السماء لم تخلق نفسها بنفسها الأمر الذي ينطوي على الإيمان بالذي استطاع خلقها بغير عمد ترونها...

أما الآيات الأخرى من مثل قوله تعالى:

﴿أَوَلَم يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمواتِ وَالأَرضَ كَانَتَا رَتقاً فَفَتَقنَاهُمَا...﴾.

فهذه تدلل بما لا يدع مجالاً للشك أن الأرض انفصلت عن السماء وهو الذي توصل إلى معرفته العلم الحديث برغم أن ذلك مذكور في القرآن منذ أربعة عشر قرناً والغريب في الأمر أن الذي توصل إليه هم أئمه الكفر والإلحاد وكأن القرآن يعلم أنهم سيفعلون ذلك لذا قال: ﴿أَوَلَم يَرَ الَّذِينَ كَفَرُواْ....﴾.

وقوله تعالي: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَواتِ وَالأَرضَ وَمَا بَينَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ... ثُمَّ استَوَى عَلَى العَرْشِ...﴾ [السجدة٤].

ماذا بعد ذلك الإعجاز... لا بل وبأي حديث بعده يؤمنون فالآية تفتح آفاق البحث والتأمل.. في زمن البحث والتأمل ولا سيما حين تواصل الآيات المعبرة عن مثل هذا الإعجاز الذي يظهر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدّونَ﴾. وقد توصل

العلم فعلاً إلى أن خلق السموات والأرض قد مر بمراحل واطوار وكل مرحلة او طور استغرق آلاف أو ربما ملايين السنين. ﴿وَقَد خَلَقكُم أَطوَاراً﴾ وكأن كل يوم من أيام الله يمثل طوراً أو مرحلة أو كألف سنة مما تعدون... واكثر من ذلك حين يقول: ﴿أَلَم تَرَوا كَيفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً﴾ [نوح١٣].

وقال: ﴿خَلَقَ سَبعَ سَمَوَاتٍ... وَمِنَ الأَرضِ مِثلَهُنَّ﴾ [الطلاق١٢].

أكان بمقدور الإنسان معرفة ذلك قبل نزول القرآن وحتى بعد نزوله لم تتأكد تلك الحقيقة في أذهان البعض إلا بعد أن تطورت المواصلات وسبل العلم وسلطانه الأمر الذي أوصل الإنسان إلى عتبات القمر الأولى وكان الأحرى بنا نحن أن نفعل ذلك لأننا نعلمه ونعلم حقائقه الأولى حتى لكأني استطيع أن أقول إن وصول الإنسان إلى الطابق الأول من السماء كان مطلباً قرآنياً يستشف من الآية: ﴿يَا مَعشَرَ الجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ إِستَطَعتُم أَن تَنفُذُوا مِن أَقطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ فَانفُذُوا... لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلطَانٍ﴾ [الرحمن٣٢] . وفي ذلك أمر بالنفاذ وكما فيه ايضاً ـ النفاذ إلى السلطان الموصل لذلك ـ وهو سلطان العلم لأن سلطان العلم هو الذي حقق ويحقق هذا المطلب القرآني... فأين أولئك الذين منعونا من البحث في آيات القرآن وأحكامه اللهم إلا للقراءة الخاطفة وخلال الأعياد وزيارة القبور وكتابة الأحجبة التي تصب في اطار الشعوذة والسحر والتدجيل وبث الفرقة بين الناس.

وإلا كيف يفسرون قوله: ﴿وَالقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ لَتَركَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ﴾ الانشقاق [١٧ ـ ١٨] .

وللأسف نحن لم نفعل ذلك ولكنا شاهدنا غيرنا يركب طبقاً عن طبق وكانت البداية طبق القمر ويعلم الله ما الطبق الثاني الذي سيطاله العلم، من بين سبع سماواتٍ طباقاً..

وعلى ذلك نلاحظ ونحن نتأمل بملكوت السماء حقائق أولية أصبحت ظاهرة للعيان بعد تقدم العلم ووسائله، ومنها على سبيل المثال لا الحصر... إن القرآن وحقائقه لا يتنافى وحقائق العلم كما أن القرآن وما جاء به من حقائق لا يمكن أن يجزم بشأنها بشر لذا فإن القرآن ليس من صنع البشر.

هذا ناهيك عن الحقائق التي أوردناها سابقاً.

## الشمس وظاهرة الإشراق

والحقائق الأساسية الأولى التي وصل إليها العلم وهي المبثوثة في ثنايا القرآن منذ أربعة عشر قرناً لم تقتصر على السماء أو الأرض بل تعداها إلى ظواهر الكون الأخرى.. ومنها الشمس والقمر... ولا أعرف إلا سبباً واحداً لهذا الاهتمام القرآني، بمثل تلك الظواهر الكونية والعلمية في آن واحد، ألا وهو صلاحية القرآن لكل زمان ومكان أي أنه معجزة عبر جميع الأزمان لذا لا مناص من الاعتقاد بذلك إن لم يكن في الوهلة الأولى ففي الوهلة الثانية والثالثة حين تبدأ النظرة المتأملة والثاقبة للأُمور... فالإنسان، منذ أربعة عشر قرناً ، كان لا يدرك من القرآن إلا ظاهره ـ اللهم إلا الراسخون في العلم من السلف الصالح ففي الآيات الخاصة بالشمس والقمر، مثلا ماذا كان يدرك حين يقرأ هذه الآية ﴿**هُوَ الَّذي جَعَلَ الشَّمسَ ضياءً وَالقَمَرَ نُوراً...**﴾ [يونس ٥] لم يكن يدرك، من تلك الآية، إلا أن الشمس تأتي بالنهار والقمر لا يظر نوره إلا في الليل... وحتى وهو يقرأ الآية : ﴿**وجَعَلَ القَمَرَ فيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمسَ سِرَاجاً**﴾[نوح١٥].

هذا ما يوحى إليه من ظاهرة الشمس والقمر، ما عدا ذلك وهو لم يؤت بعد من العلم إلا حظاً قليلاً فإنه لم يدرك زيادة عليه... من مثل، الحقائق القرآنية التي استدل عليها العلم حديثاً وهي أن الشمس، يمكن وهي سراج وهاج ، أن تعطي من هذا السراج طاقة شمسية لخدمة الإنسانية، في شتى منافع الحياة، شأنها في ذلك، شأن جذوة من النار وهي تؤخذ من السراج لتبديد ظلمة الليل أو لتخفيف برد الشتاء .. وعلى هذا أمكن استنباط الطاقة بأنواعها من سراج الشمس ولا أظنه من القمر يمكن ذلك ففي القمر نور وفي الشمس سراج وهاج قال تعالى: ﴿**وَجَعَلنا سِرَاجاً وَهَّاجاً**﴾ [النبأ١٣]

﴿**وَجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمسَ سِرَاجاً**﴾ [نوح١٥]

وقال:

﴿**تَبَارَكَ الَّذي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وقَمَراً مُنِيراً**﴾[ الفرقان٦١].

هذا عن اشتقاق الطاقة.. وماذا عن الأمور الأخرى لنتأمل الآيات الآتية.

﴿**والشَّمْسُ تَجري لِمُستَقَرٍّ لَّهَا ذَلكَ تَقديرُ العَزِيزِ العَلِيمِ**﴾ [يس٣٨].

﴿**وَسَخَّرَ الشَّمسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجري لأَجَلٍ مُّسَمًّى**﴾[فاطر ١٣].

﴿وَسَخَّرَ لكُمُ الشَّمسَ وَالقَمَرَ دائِبين﴾ [ابراهيم٣٣].

وغالباً ما كانت تلك الحقائق الكونية تندرج تحت أبواب الطلاسم والألغاز.. ولكن مادامت تلك الحقائق بارزة وظاهرة في القرآن لم هذا التلكوء في الوصول إليها، ليس هذا وحسب، بل ناهيك عن ذاك التلكؤ ظلم الكثير والكثير من الناس حين نظروا ببصرهم إلى السماء لعلهم يدركون شيئاً مما يرون وكان على رأس المعوقين، لتلك الحالة، هم أصحاب الأديان أو الذين هم على رأس سدنتها، وللأسف، أما نحن، فلا شك أننا قد استغفلنا عن ممارسة هذا الحق وإلا لكنا خير الأمم، فهذا وعد من الله والله لا يخلف الميعاد... ولكننا انجرفنا وراء الغير مقلدين ذلك الغير بحركاتهم وسكناتهم اللهم إلا ولوج أبواب العلم.

وإلاّ لَما كان هذا التلكؤ في الوصول إلى مثل تلكم الحقائق، والأنكى من ذلك أننا ما زلنا متقاعسين حتى بعد أن تأكد الينا أن القرآن يحمل في طياته معجزة، وأيّ معجزة، فها هو يكتشف العلم عظمة ذلك الإعجاز ولنسمع المزيد من الحقائق...

﴿والشَّمسُ وَالقَمَرُ بحُسبَان﴾ [الرحمن٥].

﴿لاَ الشَّمسُ يَنبغي لَهَا أَن تُدرِكَ القَمَرَ وَلاَ اللَّيلُ سَابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ في فَلَكٍ يَسبَحُونَ﴾ [يس٤٠] وهاهي الشمس تحث المسير وهي بعد لم تدرك القمر هذا قليل من كثير وربما حين يتيسر للعلم وسائل اكثر تقدماً ستنكشف معجزات القرآن اكثر فأكثر وأما وسائل العلم الحالية فقد كشفت عن طاقة الشمس الحرارية والكهربائية، وأنها تجري لمستقر لها وأنها تخضع لنظام كوني دقيق وبمنأى عن جميع ظواهر الخلل او التلف... الخ.

## ظاهرة القمر

أما القمر فهو رفيق للشمس وللأرض لا بل هو الطبق الأول الذي أكل على ظهره الإنسان... لا غرو، فقوله تعالى واضح جلي.

﴿ وَالقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ... لَتَركَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَق﴾[الإنشقاق ١٧-١٨].

وهو والشمس يسيران بانتظام لا نظير له وبحساب لا يناله خطأ أو تفاوت ﴿لاَ الشَّمسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدرِكَ القَمَرَ﴾ ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسبَحُونَ﴾ ذلك عرفناه فيما سبق والذي يجب أن نعرفه الآن ونحن بهذا الصدد عن القمر.

أنه وسيلة مثلى لقياس الزمن.

﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾ [يس٣٩]

﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾ [البقرة١٨٩].

ولا أظن أن تلك؛ الحقائق ، كان بإمكان، إنسان الجاهلية الأولى أن يدركها أو يعلم من أمرها شيئاً ولكن ها هي تبدو ناصعة في زمن العلم نصاعة آياتها في القرآن.. وبعد:

فإلى متى نبقى عالة على الغير في كل شيء وفي أيدينا كتاب ليس كمثله كتاب... وبرغم ذلك فأنا جد متفائل بصحوة اسلامية تبدأ بالعلم جنباً إلى جنب مع الأخلاق والقيم، فلا يأس مع الحياة، ولا حياة مع اليأس.

لا علينا فلنسمع ولنقرأ من خلال السطور والآيات شيئاً عن ظاهرة الزمن التي وردت في القرآن.

﴿والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ماخلق الله ذلك إلاّ بالحق... يفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ [يونس٥] .

ومن خلال ذلك أمكن معرفة عدد أيام السنة والشهر والأسبوع وعدد الساعات والدقائق.. الخ وبعد:

هل تلك الآيات شيء من التشريع والهداية والارشاد؟؟

أما أنا فلا أرى إلا دعوة للبحث والعلم والتأمل في خلق الله وملكوته...

نعم وإن كانت آيات القرآن توحي بذلك إلا أنها أيضاً أرست حقائق صريحة لا تبديل لها.... ومن بينها حقائق زمنية... فقد أتت بعض الآيات على المصطلحات الآتية:

١- اليوم: ﴿وخلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام﴾.

٢- السنة: ﴿إنّ يوماً عند ربك كألف سنة﴾.

٣-الشهر: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾.

٤- الساعة: ﴿يوم تقوم الساعة﴾.

وأوضحها ﴿عدة الشهور عند الله إثنا عشر شهراً.....﴾.

والحقائق تلك المبثوث منها في ظاهرة السماء أو الشمس أو القمر، لن يحيط بها علم إنسان وستبقى محك الفكر جيلاً بعد جيل كيف لا وهي وآيات القرآن معجزات باقية،

للعلم والعمل ما بقي الإنسان على ظهر الأرض.

فحين يقول: مثلاً ﴿**وَيَسألُونَكَ عَنِ الأَهلَّة قُل هِيَ مَوَاقِيتُ للَّناسِ وَالحَجِ**﴾ فإن في الأمر إعجازاً للإنسان عبر الزمان والمكان لأنه قال مواقيت للناس «كل الناس» ، وحتى وهو يقول: ﴿**إِنَّ يَوماً عِندَ رَبّكَ كَألف سَنَة مِمَّا تَعُدّوُن**﴾ وكأنه يضعنا أمام حقيقة الزمن النسبي والزمن المطلق، وجهاً لوجه.

وبعد ذلك نظل نعمل العقل في ذلك الملكوت نسخر كل الطاقات والحسابات الالكترونية وغير الالكترونية ونصرف الأموال جيلاً بعد جيل لنكون بفعلنا هذا ومن حيث لا ندرى نحقق الآية هذه ﴿**وَلِتَعلَمُوا عَدَدَ السِّنينَ وَالحِساب**﴾.... أما السنون فقد وصلنا إلى شيء منها وأما الحساب فقد وصلنا إلى أشياء ولكنا لم ولن نصل نهاية الطريق إلا بإنتهاء الكون....

تبقى حقيقة روحية لا بد من ذكرها، ونحن بصدد هذا الملكوت، فالذي نراه أن السماء مكمن الغذاء الروحي ومصدر الضوء الطبيعي وبداية الطريق إلى الهدى والإلهام فكان منها الوحي حين جاء بالهداية والإرشاد، ليخرج الناس من ظلمات الضلال إلى نور الحق والحرية وآفاق الفكر والعلوم، وتأتي منها إشراقة الصباح لتضيء الكون لتفتح يوما جديداً يدعو الإنسان للبحث والعمل والسعي في الأرض وتقوم بهذا العمل الدوري اللامنتهي كواكب الشمس التي تضفي على الأرض ضوء وطاقة وحركة لا تنفذ هي ايضاً ولا تنتهي .

ومن السماء تأتي نسمة الهواء لتفتح صدور العالمين بآفاق الحب والحياة، والأمل والاشراق بنظام سرمدي لا ينفذ كيف لا وهو من عند الله «فما عند الله باق».... لا ينفذ وعلى هذا يمكن أن نقول إن السماء وما فيها تمثل ظاهرة فريدة هي ظاهرة الإشراق الروحي وبدونها تبقى الأرض ميته، لا حياة فيها ولا روح.

## ظاهرة الأرض

إن كان من السماء، بدء الوحي والهدايه الروحية فمن الأرض كانت البداية المادية وفيها تكون نهاية المادية، فالسماء رمز الاشراق والأمل، والأرض رمز السعي والعمل، وفي السماء بدأت ظاهرة الحياة... وعلى الأرض تكون ظاهرة الموت والحياة ولكن اعلموا أن لا حياة للأرض إلا بأذن السماء وعطاء السماء.

﴿إِعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يُحيِ الأَرضَ بعَدَ مَوتِهَا قَد بَيَّنَّا لَكُم الآيَاتَ لَعَلَّكُم تَعقِلُونَ﴾ [الحديد١٧].. ولكن حين يخرج الله الحي من الميت وتعود الحياة للارض بالسعي والعمل والكفاح المتواصل.

حتى بعد ذلك، يبقى من السماء غذاء الروح ومن الأرض غذاء الجسد ولا حياة متكاملة للإنسان إلا بالغذائين.

أما الإستزادة من الغذائين، وهو المهم، لا يتأتى إلا من وسائلها الرئيسة.

فمن السماء كما رأينا جاء الوحي بالهدى برسالة مباشرة هي القرآن لتنقية الروح مما يشوبها ومن ثم تغذيتها بالغذاء الروحي.

ومن السماء أيضاً يبدأ ضياء النهار فمنها الطاقة والضوء والحرارة ونسمة الحياة والإلهام والوحي ومقابل ذلك، تبقى الأرض وسيلة مادية لغذاء مادي بإعمال العقل والحواس وبالممارسة مع استلهام طاقات السماء والكون الأخرى وبدون ذلك لا يتأتى من الأرض شيء، وإن تأتي شيء من السماء عن طريق العطاء التلقائي بدون بذل أو تضحية فلأن الذي يأتي من إمكانيات السماء، غير الذي يأتي من الأرض فالآتي من السماء يأتي بدون شروط... وأما الذي يأتي من الأرض، لا يأتي إلا بشروط العمل والفعل وتسخير الطاقات المبذولة لتحويل الأرض الميتة إلى أرض خضراء نامية معطية، وقبل أن نخوض بشيءٍ من ذلك علينا أن نعلم حقيقة الأرض وما تمثل بالنسبة لآيات القرآن.

## الأرض في القرآن

فالأرض... حين كانت وسائل المعرفة، لا تتعدى العين المجردة، لم يكن معروفاً فيها إلا بمقدار ما تستوعبه تلك العين، وفي هذه الحالة ، تكون الأرض محدودة بحدود الأفق والعين، لا أكثر وعلى ذلك لا يفهم من القرآن بخصوص الأرض، إلا بمقدار ذاك الأفق وتلك الحدود.

قال تعالى: ﴿الَّذي جَعَلَ الأَرضَ فِراشاً وَالسَّماءَ بِنَاءً﴾

﴿وَالأَرضَ فَرَشنَاهَا ، فَنعمَ المَاهِدُون﴾[الذاريات٤٨]

وقال ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم الأَرضَ بِسَاطاً﴾ [نوح١٩].

﴿الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرضَ مِهَداً وَسَلَكَ لَكُم فِيهَا سُبُلاً﴾ [طه٥٣].

تلك الأرض بحدود العين الإنسانية مسكن وفراش وبساط وتلك العين هي عين الرائي البسيط أما حين يتطور الإنسان بعض الشيء في العلم والمعرفة يقول تعالى:﴿**أَلَم نَجعَلِ الأَرضَ مِهَاداً وَالجِبَالَ أَوتَاداً**﴾ [النبأ٦-٧].

﴿**وَأَلقَى فِي الأَرضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُم**﴾ [لقمان ١٠].

﴿**وَجَعَلنَا فِي الأَرضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِم وَجَعَلنا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُم يَهتَدُونَ**﴾ [الانبياء ٣١].

وعلى هذا فإن الجبال كما الأوتاد وضعت في الأرض لإحداث التوازن فيها وهكذا يستمر القرآن بالاسلوب المثالي التدريجي يفصح شيئاً فشيئاً عن حقيقة الأرض حسب فهم الإنسان واستيعابه أما الحقائق فهي موجودة وإن كان من قصور في فهمها فهو من الإنسان....

وكل تطور علمي يحصل لدى الإنسان لا بد أن يضفي ذلك شيئاً جديداً على معاني القرآن فالرائي بالعين المجردة تكون رؤاه محددة بأفق تلك العين أما الرائي بالميكروسكوب أو بعين العلم فإن افقه المعرفي يتسع ـ الأمر الذي تتكون لديه بناء على ذلك، معاني أوسع لآيات القران تتسع لآيات الكون لأنه يرى ببصيرة العلم والعقل.

والرؤى تختلف من انسان لآخر فكلٌ يفهم من القرآن بمقدار تخصصه وافقه المعرفي حتى أن الرائي من متخصصي علم الفلك مثلاً يرى من حيثيات الأرض ما يختلف عن رؤى غيره، من المتخصصين في مجالات الأرض الاخرى كالجيولوجي وحتي هذا يرى أن اموراً تليق بمجاله يمكن أن يستقيها من مفاهيم القران لتؤكد الذي يعرفه من علوم وإن كان من أختلاف فلأن مقدرة العقل تبقى محدودة ـ جزئية ـ فالقرآن وحده الذي قطع بشكل الأرض بعد أن تعثر الإنسان طويلاً في ذلك، فتارة يقول كروية واخرى يقول كالكمثرى وغير ذلك كثير وهي بالنص القرآني كالدحية «البيضة».

﴿**وَالأَرضَ بَعدَ ذَلِكَ دَحَاهَا**﴾ [النازعات ٣٠].

إلى هنا ينتهى الأمر... فلا أحد يقطع بأمرها إلا صانعها وهو الذي أرسل رسالة القرآن للكشف عن سرها وسر غيرها..

****

أما دورانها يستشف من ظاهرة الليل والنهار... كما قيل «والله أعلم» .

﴿**يُكَوِّرُ اللَّيلَ عَلَى النَّهارَ ويُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيلِ**﴾.

فلو لم تكن كذلك من حقائق لبقيت على حالة واحدة من الليل أو النهار أما حقيقة طبقاتها فقد قال تعالى:

﴿**خلقَ سَبعَ سَمَواتٍ..... وَمِنَ الأَرْضِ مِثلَهُنَّ**﴾ [الطلاق١٢].

إن لم تكن، تلك طبقات الأرض... كما هي طبقات السماء فإن في الأمر إحتمال وجود شبه للأرض بين الكواكب الأخرى وهو مالم يقطع بأمره أحد... وما دام الأمر كذلك فيمكن أن يفهم أن طبقات الأرض سبعة مثلها مثل السموات السبع وتبقى للعقل مهمة في هذا الصدد تسخير الامكانات لاستجلاء تلك الحقائق أكثر فأكثر، إذ لا يعقل أن نقطع بعدم وجود شيء إن لم نراه، فكم من الكائنات والكواكب المجهرية وغيرها لم تكن إلا في عداد الأساطير والخيالات والألغاز أصبحت بوسائل العلم والمعرفة حقائق دامغة. وهكذا نرى أن معاني القرآن وآياته لا تنكشف إلا لقوم يعقلون، بقصد أو بغير قصد، فمن خلال أعمار الأرض «في مجال الزراعة» وزراعتها واستثمارها الاستثمار الأمثل وسيما في عصر التأمل والبحث وازدهار المعرفة، الأمر الذي نحن عليه اليوم يكشف لنا من الأرض أموراً ما كانت تخطر على بال.. وحين نتصفح آيات القرآن نجد أن شيئاً جديداً بدأ يلوح أمام ناظرينا وكأننا لم نره أو نقرأه من قبل. تلك حكمة الله في كتابه وسنته في كونه توافق وانسجام بين آياته في الآفاق وآياته في أعظم كتاب ونقتطف بعض الآيات المتيسرة لنا، فهمها على الأقل في هذا الزمان.

﴿**وَمَا ذَرَأَكُم في الأَرضِ مُختَلِفاً أَلوانُهُ إِنَّ فِي ذلكَ لآيَةً لقَومٍ يَذَّكَّرُونَ**﴾ [النحل١٤] ولكن حين تبقى الأرض يابسة كما هي وميتة فكيف يتسنى لنا إدراك ذلك من آيات ﴿**وَهُوَ الَّذي مَدَّ الأَرضَ وجَعَلَ فِيها رَوَاسِيَ وأَنهاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوجَينِ اثنَينِ.....**﴾ [الرعد٣].

فهذه الآيات لا ترجمة لها ولا معنى إلا في الأرض اليانعة الخضراء لا الأرض الجرداء.

﴿**وَفِي الأَرضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ من أَعنَابٍ وَزَرعٌ وَنَخيلٌ صِنوانٌ وَغَيرِ صِنوانٍ يُسقَى بِماءٍ واحِدٍ ونُفَضِّلُ بَعضَها عَلَى بَعضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَومٍ يَعقِلُونَ**﴾ [الرعد٤].

والحق إن في ذلك إشارة إلى استغلال الأرض وإحيائها بعد موتها إذ لا يتسنى مثل ذلك إلا لقوم يعقلون أما الذين يُبقون الأرض ميتة كما هي فقد عطلوا قدرات كامنة لا يجب أن تعطل.... هذه هي الأرض. في النص القرآني ميته للقوي المعطلة الميتة وحية نافعة لقوم يعقلون ويعملون وللأسف نعرف ذلك ونقرأه ولا ندركه وها هي أرضنا العربية نصفها أو أكثر... هي.... هي.. ما زالت هامدة... لم تبعث من سباتها الأبدي إذ كم من البراري والسهول الصالحة للزراعة لم تطأها قدم إنسان في الوقت الذي يتضور الناس جوعاً في مشرق الأرض ومغربها وإن لم يكن، فهم عالة على زراعة الغير ومنتوجات الغير والظاهره تلك للأسف واضحة في اكثر الدول فقراً وهي تملك نصفي الحياة «الماء والأرض»... أين نحن من طاقات القرآن ومطالبه، كان الأحرى بنا أن نتجه إلى الأرض لإحيائها ففيها ومنها تبدأ الحياة، حياة الإنسان وحياة الأمة وفيها آيات للموقنين...

## الأرض وظاهرة الموت

الواقع كل تلك الحقائق وردت في القرآن بجلية ووضوح، لكن الإنسان كان بمنأي عن فهمها.. إذ لم يكن قد نال من العلم إلا حظاً قليلاً... فالأرض وإن انفصلت عن السماء توطئة لخدمة الإنسان و لكنها تبقى ميتة إن لم تستخدم طاقاتها الاستخدام الأمثل فيقول تعالى:

﴿**وآيَةٌ لَّهُم الأَرضُ المَيتَةُ أَحيَيْنَاهَا وأَخرَجنا منها حَبًّا فَمنهُ يأكُلُونَ**﴾ [يس٣٢].

لا معني لتلك الآية في الأرض الخامدة إلا الموت إذ لا يصدق الناس منها غير ذلك ولكن الأرض وإن كانت ميتة هامدة فإن فيها ما يغير حالها إلى أحسن حال ـ الأمر الذي يجرنا إلى الكد والعمل والزراعة والإعمار وهي بغير ذلك تبقى ميتة فعلاً شأنها شأن الموتى الذين لا فائدة منهم.

﴿**فَانظُر إِلَى آثار رَحمَت اللَّه كَيفَ يُحيِ الأَرضَ بَعدَ مَوتِهَا إِنَّ ذلكَ لَمُحيِي المَوتَى وَهُو عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ**﴾[الروم: ٥٠].

﴿**وتَرى الأَرضَ هَامدةً فَإِذَا أَنزَلنَا عَلَيهَا المَاءَ اهتَزَّت ورَبَت وأَنبتَت من كُلِّ زَوجٍ بَهيجٍ**﴾ [سورة الحج٥].

إذن من أجل ذلك قال تعالى ﴿**وَجَعَلنَا منَ المَاءِ كُلَّ شَيءٍ حَيٍّ**﴾.

والواقع هناك آيات كثيرة تعطي معنى جديداً لظاهرة الموت وهو ما كان غامضاً بالنسبة للإنسانية. الأمر الذي أثّر على مجهودات البشرية وهي تقترب من القيم والمباديء فالمفهوم العادي لدى الناس، أن الموت مطلق وما دام محيق بالجميع وهو قريب لا محيد عنه، فلا بد أن يشتغل الإنسان أيام حياته ليعمل كما يحلو له فيفسد في الأرض ويعيث فيها افساداً لأنه ميت لا محالة... و الواقع أن ظاهرة الموت أمر نسبي بحت فيقال أمة ميته لا حراك فيها... حين تصبح مضغة للأعداء....

ويقال روح ميتة... حين تطغى المادة عليها.. ويقال ضمير ميت وغير ذلك كثير.. وبرغم أن الموت وظاهرته أجهضت نضالات البشرية نحو الحق والحرية والمباديء السامية إلا أن القرآن يفصح عن أمر غير عادي بهذا الصدد لتتضح الظاهرة جيداً فالموت بالنسبة للإنسان يمر به بأكثر من ظاهرة أو حالة فالليل يعتبر مرحلة سكون وموت، بالنسبة للنهار وها هو قوله تعالى مصدقاً لذلك:

**﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوتِهَا وَالَّتِي لَم تَمُت فِي مَنَامِهَا فَيُمسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيهَا المَوتَ وَيُرسِلُ الأُخرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾**[الزمر٤٢].

والحق لا وجود للموت المطلق وإنما الموت الذي يطال الإنسان في الدنيا ما هو إلا نهاية مرحلة ليس إلا. هي المرحلة الدنيوية وهذا الأمر جدير بالإهتمام حتى يعلم الإنسان أنه يموت ويحيى أو يحيى ويموت وهذه سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً وأن الدنيا هي مزرعة للآخرة ولكن لا تنس نصيبك من الدنيا فالإنسان كما قلنا يموت في الليل ويحيى في النهار ويموت في الدنيا ويبعث في الآخرة وكذلك الأرض الميتة اليابسة تبقى يابسة ميته، حتى يأتيها ماء الحياة...

**﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحيَينَا بِهِ الأَرضَ بَعدَ مَوتِهَا... كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾**.

**﴿يُخرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَيُحيِي الأَرضَ بَعدَ مَوتِهَا وَكَذَلِكَ تُخرَجُونَ﴾** [الروم١٩].

وعلى هذا يمكن القول إن الموت نسبي واجمل معنى له هو خمود الطاقة وكمونها وإذا ما تيسرت لها الوسائل فإنها تعيد سيرتها الأولى من النشاط والحيوية فالموت بالنسبة للأرض في

همودها وتوقف عطاءها وبالنسبة للإنسان، النوم والسكون «الموت» وتعطل فعل العقل وبالنسبة للكون الليل وسكونه.

## ظاهرة الليل والنهار

والظاهرة الأخرى التي احتصها القرآن بالإهتمام هي ظاهرة الليل والنهار ولعل الساذج في القول والفكر، يتنطع فيقول وما دخل القرآن بتلك الظواهر الكونية بما فيها الظاهرة هذه فيرد القرآن على أولئك فيقول:

**﴿إنَّ في خَلقِ السَّموات والأَرضِ.... وَاختلافِ اللَّيلِ وَالنَّهار لآياتٍ لأُولي الأَلبَاب﴾.**

إذن لا نصيب لأولئك السذج، من القول والفكر ، إلا ما يملأ بطونهم ليس إلا ... هم فقط يتمتعون بما سخر لهم الله في الأرض والسماء أما كيف.. ولماذا... والغاية من ذلك كله... فهم لا يفقهون شيئاً من ذلك...إنهم **﴿كَالأنعَامِ بَل هُم أَضَلُّ سَبيلاً﴾** وللأسف كاد يتحول الإنسان إلى هذا الدرك الحيواني الإستهلاكي والطامة الكبرى أن الذي يتفكر بملكوت السماوات والأرض هم ايضاً من أجل المنافع المادية المبثوثة في ذلك الملكوت الواسع.

وإلا لما رأينا هذا التفريط بما يصلون اليه من تلك المنافع لو هم أدركوا المعني القيّمي والروحي لتلك الفوائد أو المنافع المادية، فلو لم يكن لها ذلك المعنى لما أضفى عليها هذا الكتاب مثل هذا الاهتمام.... فمثلا يقول تعالى:

**﴿وَجَعَلنَا اللَّيلَ وَالنَّهارَ آيتَين فَمَحَونَا آيَةَ اللَّيلِ وَجَعَلنَا آيَةَ النَّهارِ مُبصِرةً... لتَبتَغُواْ فَضلاً من رَّبكُم ولتَعلَمُواْ عَدَدَ السِّنينَ وَالحسَابَ وكُلَّ شيءٍ فَصَّلنَاهُ تَفصيلاً﴾**[الأسراء١٢].

وعلى ذلك فإن في ذلك الخلق آيات بينات فضلاً عما يحويه من مزايا مسخرات لاستخدامات الإنسان لعله يشكر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم... وهكذا.

فإن الحقيقة تبدو، جلية كاملة في ثنايا القرآن فما من ظاهرة أو مادة أو متاع إلا ويلفها إطار بهيج من القيّم والمعاني الروحية.

فالليل ومعه ظاهرة النهار وان كانا من آثار العلاقة الوحيدة بين كواكب الشمس والقمر والأرض إلا أنهما يمثلان آيتين تهديان إلى عظمة الخالق، وقصور المخلوق لا في تغيير مسارهما أو نظامهما بل وفي المغزى الحقيقي الكامل لوجودهما... ولكن القرآن يضع الخطوط العريضة لذلك المغزى وإن كانت من الإيجاز بحيث وضعت ضمن اطار من الكلمات محدود العدد. إلا أنها تكشف الحقائق كاملة إن لم يكن في زمن واحد، فسيكون عبر الأزمان وتبقى بين تلك الأزمان مهمات ومسائل هي من إختصاص العقل ليعمل فيها بكل قدراته، لعله يكشف الحقيقة التي لن تخرج عن إيحاءات القرآن المتسقة مع ايحاءات الكون... كيف لا وتلك آيات ثلاث من آيات الله... «القرآن، الكون، العقل».

وفي الليل والنهار كما ورد في الآية، تكمن مهمة العقل في إستجلاء حساب الزمن وفعلا نجح العقل في ذلك نجاحاً باهراً يليق بالآية القرآنية ﴿..**ولتعلموا عدد السنين والحساب...**﴾

وتقسيم الزمن إلى تينك الظاهرتين، لتكمن فيه منفعة مادية، ومنفعة روحية قلما يدركها الإنسان وهو بمنأى عن هذا الكتاب..... والآيات التي وردت في القرآن على الليل والنهار كثيرة قال تعالى:

﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيلَ لِبَاساً**﴾ ﴿**وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشَا**﴾

صحيح أن تغيراً كبيراً قد حصل على تينك المعادلتين بحيث أمكن للإنسان أن يعمل في الليل وينام في النهار بعد أن أضاء الليل... إلا أن هذا الخرق لا يمس كبد الحقيقة بسؤ.... وهي أن الإنسان نؤوم في الليل دؤوب في النهار.... حتى أن هذا التقيسم الطبيعي هو بمثابة رحمة كبيرة، لا تضاهى، إختص الله بها بُنية الإنسان وكيانه. ﴿**وَمِن رَّحمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ لِتَسكُنُواْ فِيهِ وَلِيَبتَغُواْ مِن فَضلِهِ....**﴾[القصص ٧٣]

ففي الأول يكمن السكن وفي الثاني يكمن العمل والإرتزاق وإن نجح الإنسان بالعمل اثناء الليل إلا أنه يبقى متعطشاً لهدأة الليل وسكونه وهكذا نرى التناسق الدقيق بين «معمار القرآن» ومعمار الإنسان والكون.

لا يتسنى لكائن من كان، أن يفعل فعل ذلك التناسق الأمر الذي يظهر الإعجاز الحقيقي لهذا الكتاب وها هو يتحدى في هذا المضمار العلمي.....

﴿**قُل أَرَءَيتُم إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيكُم اللَّيلَ سَرمَداً إِلَى يَومِ القِيَامَةِ مَن إِلَهٌ غَيرُ اللَّهِ**

**يأتيكم بضياء.... أفلا تسمعون﴾** [القصص ٧١].

**﴿قل أرءيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ....﴾** [القصص٧٢].

أين هم علماؤنا الذين لم يفطنوا من القرآن إلا إلى تلك الحركات وأحيانا ينسجون حولها ألف كتاب وكتاب بقصد التعجيز والتعسير والله يقول:

**﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾** [البقرة١٨٥].

أنا أرى أن نصف اليقين هو التفكير بملكوت السموات والأرض بروية وهدوء وإيمان وامتثال لأن في ذلك يكمن الإيحاء الحقيقي... لقوم يعقلون كما يكمن فيه أيضاً، إزدهار العلم والبحث العلمي هذه هي ثورة القرآن نور وعلم وإيمان وإلا لما قال في أكثر من مقال: **﴿ليخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾**.

أي من العبودية إلى الحرية ومن الظلم والإستعباد إلى الحق والعدل والمساواة.. من الجهل والجهالة إلى العلم والحكمة وما التضحيات والنواهي وغيرها التي وردت في القرآن إلا لتحقيق ذلك كله فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والزكاة تطهر النفس والمال والصيام يطهر الروح والحج يلهم الصبر والحركة والنشاط وتبقى مهمة إعمار الكون بحكمة ورشاد من أقدس المهمات..

## الماء وظاهرة الحياة

ونحن نقسم الظاهرة الكونية إلى

**أولاً:** السماء وظاهرة الإشراق... **وثانياً:** الأرض وظاهرة الموت... وهذه **ثالثاً:** الماء وظاهرة الحياة... نعم ونحن نفعل ذلك...

الحق، لم نكن عابثين، وبالأحرى نحن لم نأت بجديد فهذه كما هي في القرآن، هي في الكون... وما فعلناه، ليس إلا من قبيل وضع النقاط على الحروف... ليتسنى للجميع معرفة أن للكون أو الظاهرة الكونية، مثيلاً في آيات القرآن، بل وتحتل مكاناً بارزاً من آياته الأمر الذي شجعنا على التسمية تلك «الظاهرة القرآنية».

والحق، أيضاً، معروف هدفنا من ذلك وهو بعث الحياة والأمل في النفوس، من جديد، بعد أن وهن العظم منها، وتكاسلت عن فعل أي شيء يقدم في هذا المجال... إذ أبقت

الأرض ميتة على ما هي عليها دون استثمار أو استغلال... والماء الذي هو بمثابة الروح للأرض، أهدرت كمياته، عبثاً وبلا طائل وحتى السماء،.... وما تعني من عطاء تلقائي، تكاد تنقطع صلتنا بها... اللهم ما يبذل لنا من ذلك العطاء... وبلا مقابل.

وإستبدلنا عن ذلك كله، ما نستلمه من نقود مقابل ما نبدد ونبيع من الخامات الإستراتيجية، التي هي بمثابة الكنوز، لا تستخدم إلا عند الحاجة ولا سيما عند تعثر الإنتاج الطبيعي في حالات الحروب مثلاً أو قلة المياه وإذا كنا قد الصقنا الأرض، بظاهرة الموت فكيف يمثل الماء ظاهرة الحياة؟؟

هذا الذي نود الحديث عنه:

فالماء، هو الذي يرمز للحياة، بل يمثلها في أسمى معانيها ليس فقط في الإنسان، ولكن أيضاً في النبات والحيوان قال تعالى:﴿**وَأَنزَلنَا مِن السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوجٍ كَرِيمٍ**﴾ [لقمان ١٠].

قال تعالى: ﴿**وَجَعَلنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيءٍ حَيٍّ**﴾[الانبياء» ٣٠]

فالأرض تمثل المثل الأعلى في الموت والحياة... تبدأ يابسة ميتة وحين ينزل الماء تبدأ الحياة والخضرة لا بل تبدأ الزراعة والنشاط والحركة على ظهر الأرض كيف لا وهو ماء الحياة هكذا يقول القرآن وقوله بمثابة بدء الحياة الزراعية بشيء علمي منظم... وقبل ذلك كانت تجارب واختبارات لحقائق الحياة... هذا الذي نستشفه من قوله تعالى:

﴿**وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَآءً فَأَحيَا بِهِ الأَرضَ بَعدَ مَوتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَومٍ يَسْمَعُونَ**﴾[النحل٦٥].

فبالماء تبدأ الحياة والنشاط والحركة والزراعة والنماء والخضرة. ذلك لقوم يسمعون.

﴿**وَتَرَى الأَرضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلنَا عَلَيهَا المَاءَ اهتَزَّت وَرَبَت وَأَنبَتَت مِن كُلِّ زَوجٍ بَهِيجٍ**﴾[الحج ٥].

فإن لم نصدق بذلك.. دعونا نجرب لنرى ونشاهد.. فالأمر ليس خيالات أو بإذن من معلم مجنون كما قال الكافرون ولكنها حقائق.

﴿**أَلَم تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصبِحُ الأَرضُ مُخضَرَّةً**﴾[الحج٦٣].

وتبدأ التفاصيل... ويستمر الاقناع وإن لم يكن موصلاً للإيمان فلا أقل من الوصول إلى

حيثيات الحياة.

﴿ونزّلنا من السّماء ماءً مُّباركاً فأنبتنا به جنّاتٍ وحبَّ الحصيد﴾[ق:٩].

وماذا بعد:

﴿أولم يروا أنّا نسوقُ الماءَ إلى الأرض الجُرُز فنُخرجُ به زرعاً تأكُلُ منهُ أنعامُهُم وأنفُسُهم أفلا يُبصرون﴾[السجدة٢٧]

للأسف... لم نبصر بعد.

وبعد تلك الومضات والرموز والإشارات التي تدعو إلى العمل والزراعة والحركة والنشاط لإحياة الأرض بالماء وبالجهد... خلال ذلك... تبدأ الدعوة للتأمل لكل من زرع وحصد، فهم وحدهم القادرون على التأمل أما إن لم يفعلوا فأنى لهم ذلك والأرض ما لبثت ميته ولنتأمل بتلك الحيثيات وما نتج عن ذلك النشاط،

﴿وهو الّذي أنزل من السّماء ماءً، فأخرجنا به نبات كُلّ شيءٍ... فأخرجنا منهُ خضراً نُّخرجُ منهُ حبّاً مُّتراكباً ومن النّخل من طلعها قنوانٌ دانيةٌ وجنّاتٍ من أعناب والزّيتون والرُّمّان مُشتبهاً وغير مُتشابه.. أُنظُرُوا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إنّ في ذلكُم لآياتٍ لقومٍ يُؤمنون﴾ [الأنعام٩٩].

هذه هي الخطوط العريضة لأعظم درس في الزراعة والعمل والنشاط إنه الدرس المتكامل الذي يوجه إلى عنصري الإنسان المادة والروح، بعد أن تنشطوا بالعمل والحركة والزراعة.. بعد ذلك راقبوا ما فعلتم... انظروا... لا تأكلوا وحسب.. لا تغذوا أجسادكم وحسب بل كلوا واشربوا وانظروا واحمدوا الله هذا هو الإيمان التجريبي العملي اليقيني واكثر ما يظهر في الحقول في العمل وفي النشاط... لذا ونحن عالة على الغير.... ونستورد معلبات الغير.... فكيف نستورد الإيمان ﴿أفرأيتُم الماءَ الّذي تشربُون... ءأنتُم أنزلتُموهُ من المُزن أم نحنُ المُنزلُون﴾ [الواقعة٦٨-٦٩].

فإن لم تزرعوا.. على الأقل تأملوا في الماء...

﴿هُو الّذي أنزل من السّماء ماءً لّكُم مّنهُ شرابٌ ومنهُ شجرٌ فيه تسيمُون﴾[النحل١٠].

﴿يُنبتُ لكُم به الزّرع والزّيتُون والنّخيل والأعناب ومن كُلّ الثّمرات إنّ في

﴿ذَلِكَ لآيَةً لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل ١١].

والماء طبعاً وحده لا يكفي بل بالعمل والفكر...

وحيث تستمر الزراعة والنشاط ويستمر من خلالهما التأمل فلا بد أن يقطف الإنسان نتاج ذلك النشاط ونتاجه مزدوج النفع... إما في الإيمان أو في العمل وها هو يؤكد على ذلك في قوله :

﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ. أَنَّا صَبَبْنَا المَاءَ صَبّاً ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرضَ شَقّاً، فَأَنبَتنَا فِيهَا حَبّاً وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخلاً وَحَدَائِقَ غُلْباً، وَفَاكِهَةً وَأَبّاً مَتَاعاً لَكُم وَلأَنعَامِكُم﴾ [عبس ٢٤-٣٢].

ذلك درس قرآني متكامل، في الزراعة وفي الإيمان وعليه لا بد أن نعي ذلك الدرس العلمي والإيماني بنفس الوقت وهو ولا ريب جدير بأهل العلم وزمانهم.

فمثل تلك الآيات، ربما لم تكن تعن شيئاً زمن الجاهلية الأولى إلا أنها الآن وفي زمن العلم تعني الشيء الكثير الأمر الذي يعزز معجزة القرآن الأزلية وصلاحيته في كل الأمكنة والأزمان دعونا نقرأ درساً آخر من القرآن والدرس الآن.

## ظاهرة الرياح والسحاب

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحيَينَا بِهِ الأَرضَ بَعدَ مَوتِهَا﴾.

وقال أيضاً: ﴿أَلَم تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَينَهُ ثُمَّ يَجعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الوَدقَ يَخرُجُ مِن خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصرِفُهُ عَن مَن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرقِهِ يَذهَبُ بِالأَبصَارِ﴾ [النور٤٣].

ولا شك إن تلك الآيات تشكل درساً قرآنياً عظيماً غاية في العمق والنضوج. حول تكوّن ظاهرة السحاب وأثر الرياح فيها ولا أظن أهل الجاهلية الأولى كان بمقدورهم فهم ذلك بعكس أهل العصر الأمر الذي يوضح لنا مدى الإتساق بين ما ذكر قبل مئات السنين وبين ما توصل إليه العلم الحديث وهو ما يوضح لنا أن هذا الكتاب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديقاً لغيره من آيات الله إنْ في الكتب ففي الكتب.. وإن في الكون ففي الكون...

ونلاحظ من الآيات أن أول قضية كان القرآن حريصاً على حسمها هي قضية الإيمان

وهي أن الله.. لا غيره وراء تلك الظاهرة.. فلا داعي بعد اليوم للشعوذة والتدجيل.

والقضية الثانية هي الظاهرة العلمية: التي تتمثل بتكون السحاب أولاً ومن ثم تحريك هذا السحاب والتحريك حقيقة لا مناص منها ولا يهم طريقة التحريك فقد تكون تلقائية عن طريق الرياح أو علمية صناعية كالطائرات التي تزرع السحب.. في مكان معين ولعل أهل الإختصاص بهذا الشأن قادرون على استجلاء الأمر أكثر، فهم الأقدر على ذلك... كيف لا وهم يملكون المصدرين.

وقال: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُرسِلُ الرِّيَاحَ بُشراً بَينَ يَدَي رَحمَته حَتَّى إذا أَقَلَّت سَحَاباً ثقالاً سُقنَاهُ لبَلَد مَيِّت فَأنزَلنَا به الماءَ.. فَأخرَجنَا به من كُلِّ الثَّمرَات كَذَلكَ نُخرجُ المَوتَى لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ**﴾ [الأعراف٥٧].

﴿**وأَرسَلنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزلنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسقَينَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُم لَهُ بِخَازِنِين**﴾ [الحجر٢٢].

﴿**وَجَعلنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً وَأَنزَلنَا مِنَ المُعصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً لِنُخرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً وَجَنَّاتٍ أَلفَافاً**﴾[النبأ١٣-١٦].

فالرياح والحرارة تنقلان الماء، على شكل البخار إلى السماء فيشكل السحاب الذي تسوقه الرياح وتجمعه بإذن الله لينزل على شكل مطر ليحيي الأرض بعد موتها...

## ظاهرة البحر

أما عن البحر الذي نتجه إليه بنظرات زائغة وخائفة لا نفع فيها ولا فائدة فإن فيه آيات إيمانية وعلمية ربما لا تخطر على بال أحد اللهم إلا المؤمنين حقاً أو لمن خاضوا البحر وانتفعوا بخيراته وها هو القران يفصح عن الكثير من فوائد البحر واسراره نقلها الينا بآيات محكمة نبي أمي، منذ أربعة عشر قرنا.. قال تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذي سَخَّر لَكُمُ البَحرَ لِتَجرِيَ الفُلكُ فِيه بِأَمرِه وَلِتَبتَغُواْ مِن فَضلِه وَلَعَلَّكُم تُشكُرُونَ**﴾ [الجاثية١١].

والنبي الذي جاء بذلك لم يركب ابحر حتى يعلم ما جاء به وإنما نقل إلينا الآيات كما هي واردة من الخالق القادر ولا شك أن المعنى الحقيقي لها سيأتي يوماً بعد يوم وها هو اليوم الذي تتضح فيه تلك المعاني... أو بعضها...

فنعمة البحر كما نرى عظيمة وعظمته قد تتوضح أكثر في هذه الآيات.

﴿وَهُوَ الَّذي سَخَّرَ البَحرَ لتأكلُوا منهُ لَحماً طَرياً وَتَستَخرجُواْ منهُ حليَةً تلبَسُونَهَا.... وترى الفُلكَ مَوَاخرَ فيهِ ولتبتغُوا من فَضلهِ ولَعلَّكُم تشكُرُونَ﴾[النحل١٤].

وذلك يعني درساً قرآنياً عظيماً في البحر واستغلال خيراته وللأسف أدرك غيرنا تلك الخيرات والمزايا ونحن ما زلنا عالة على فعل ذلك الغير، فلم نأكل لحماً طرياً بفعل أيدينا ولا حلية لبسناها... وحتى الفلك والسفن التي تجري في أعالي البحار العربية والإسلامية، إن لم تكن للأمم الأخرى فهي من صنع الأمم الآخرى... وليس الذي سردناه من فوائد البحر هو من أجل الحصر ولكن هي أمثلة من أجل العمل والإيمان ولنسمع أمثلة أخرى فلعل الأمور تتضح اكثر واكثر... قال تعالى:

﴿مرَجَ البَحرَين يلتقيان.... بينَهُمَا برزخٌ لا يَبغيان﴾[الرحمن ٢٠].

﴿يَخرُجُ منهُما اللُّؤلُؤ والمَرجَانُ﴾ [ الرحمن٢٢] ﴿ولَهُ الجَوارِ المُنشآتُ فِي البَحرِ كَالأَعلامِ﴾[الرحمن٢٤].

## ظاهرة الحيوان والأنعام

وقبل أن نطوي هذه الصفحات على ما مر من إشراقات قرآنية وومضات إيمانية إنبجست بجلالها من آيات الله المطبوعة على صفحة الكون المتسقة مع ايات الذكر الحكيم، أرى أن لا بد في هذا الصدد من المرور ولو سريعاً، على مثل ذلك كي نستشف المزيد من حكمة هذا الكتاب وعظمته التي تأتي على كل مجال، ومجالنا الآن هي الأنعام وما يدب على ظهر الأرض من حيوان ففي ذلك آيات عظيمة توحي بالإيمان وتدعو للعلم، وإلا لما رأينا اهتمام القرآن بمثل ذلك وهو يخصص سوّر كاملة لهذا المجال فهناك سورة الأنعام، والنحل ، والنمل ، والعنكبوت ، والبقرة... و للأسف، إن ذلك تقديراً عظيماً من الخالق لخلقه في الوقت الذي نمر عليه نحن مرور الكرام وحين يتصدى له الأجنبي بالبحث والتأمل والتنقيب نقول فعلاً، القرآن قال بذلك أي لم ندرك تلك العظمة إلا حين أعلمنا الغير بذلك فتعالوا معي ندرك هذه العظمة بالنصوص القرآنية.

﴿وَالأَنعَامَ خَلَقَهَا لَكُم فيهَا دفءٌ وَمنَافعُ وَمنهَا تَأكُلُونَ* وَلَكُمْ فيهَا جَمَالٌ حينَ تُريحُونَ وَحينَ تَسرحُونَ وَتَحملُ أَثقَالَكُم إِلَى بَلَدٍ لَّم تكُونُواْ بالغيهِ إِلاَّ بِشقِّ

**الأَنفُس إِنّ رَبَّكُم لَرَؤُوفٌ رَّحِيم * وَالخَيلَ وَالبِغَالَ وَالحَمِيرِ لِتَركَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخلُقُ مَا لاَ تَعلَمُونَ﴾** [النحل٥–٨].

وفي مكان آخر: **﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنعَامِ بُيُوتاً تَستَخِفُّونَهَا يَومَ ظَعنِكُم وَيَومَ إِقَامَتِكُم وَمِن أَصوَافِهَا وَأَوبَارِهَا وَأَشعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾**[النحل٨٠].

أين هم الذين شغلتهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله، أين هم الذين حجّموا هذا الكتاب بحركات وفتاوي وفي كثير من الأحيان نتغاضى عن الفحشاء والمنكر...

ألا تعني تلك الآيات إيذاناً بثورة زراعية وعلمية ونشاطية، حركية تدب على ظهر الأرض لا تنقطع... أين هم الذين أخفوا حقائق الحياة... عن الجديرين بالحياة في الصناعة أو العمل... للأسف تركنا كل ذلك ونهلنا من فكر الغير وشربنا من شراب الغير وأكلنا من معلبات الغير حتى أصبحنا لا ندري ماذا نأكل من المعلبات أهي معلبات الخنزير أو الحمير أو الكلاب.

«للعلم.. آخر صرعة في تزييف المعلبات كان تعليب القطط والكلاب» أين نحن... وفي أي زمن نعيش لا شك أننا في زمن الانحطاط الخلقي، كيف لا والتقدم الذي نحرزه يتناول الجانب المادي ويتخلى عن كل ما عداه.... ولنكمل الحديث عن دعوة القرآن إلى تربية النحل والإستفادة منه.

**﴿وَأَوحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحلِ أَن اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّختَلِفٌ أَلوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾**[النحل٦٨–٦٩].

ماذا نفهم من الآية المذكورة... طبعاً أنا لا أفسر القرآن لئلا يكون حجة على كلامي أنني غير قادر على ذلك.. بل أقوم بممارسة الإيمان... ليس إلا، فإن لم أفعل فشأني شأن الذين لا يفكرون ﴿... **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾.

إذن الآية مفتوحة لكل إنسان قادر على التفكير وليس لأولئك المفسرين فقط الذين حجروا التفكير على الغير.. ليفسروا كما يحلو لهم.

فالآية ولا شك تدعو إلى تربية النحل والتأمل فيما يصنع النحل لأن في ذلك إيحاء

رباني والإيحاء لا بد أن يوصل للإيمان وكما استشف من خلال الآية دعوة للبحث في هذا الذي ينتج من عمل النحل والذي فيه شفاء للناس وعلى ذلك فإن في ذلك آية وعبرة لآولي الآبصار من كل الناس... وأن نسيت فلا أنسى الآية العظيمة عن الآنعام... ﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنعَامِ لَعِبرَةً.... نَسقِيكُم مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَينِ فَرثٍ وَدَمٍ... لَّبَناً خَالِصاً... سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ...**﴾[النحل٦٦].

# عناصر القوة في المجتمع القرآني
# أو لاً : العنصر المادي

## النشاط البشري

وبعد، لا أعرف كيف يحدث التسلسل المنطقي العجيب في المعرفة القرآنية، كل شيء ينبئ بشيء آخر ويوصل إليه هكذا بالطبيعة، والبديهة وكأنها المعطيات العظيمة تؤدي إلى النتائج العظيمة بنسق قرآني عظيم وذلك كان حقيقة واقعة فبعد أن إنتهيت من دراسة الظاهرة القرآنية، وجدت نفسي وجهاً لوجه مع هذه الظاهرة فأحسست أن هذه نتاج تلك ـ إن صح التعبير ـ أي أن الأولى مدخل للثانية، وتفسير ذلك يتأتى من إقبال القرآن بشكل ملفت للنظر علي أوجه النشاط الإنساني الأمر الذي أدهشني ونحن نستورد كل شيء في الوقت الذي يحث فيه القرآن وماينفك عن ذلك في آياته قيد أنمله فيحس المتأمل بأيات القران والذي يقف في أرض جرداء قاحلة ميتة، وكأنها تتحول إلى كتلة من النشاط والحركة والعطاء الد ائم، فقط إذا ما ترجمت المطالب القرآنية عملياً فهذا باحث في محرابه يتأمل في افاق النفس ومكوناتها وطبيب في موقعه يتأمل هذا الكيان العجيب بعيون ثلاث العين المجردة وعين الميكرسكوب وعين العقل ولا أخاله بعد تلك العيون ومعونتها ونفحات القرآن وومضاته يتوه أو يضل. إنْ في العلم أو في الإيمان....

وهذا مزارع دأب على تنفيذ المطلب القراني والسعي في الأرض لابتغاء فضل الله والمساهمة في إحياء الأرض بعد موتها فزرع التين والرمان وزرع عنباً وقضباً وزيتونا ونخلاً

وهذا مربي النحل عكف منذ الصباح على جني العسل من مصدرها الأساس... ومن نتاج عمله وجهده، وعمل وجهد أولاده... وذاك مهندس كهربائي يعمل بعقله في المصنع بجد وإخلاص هو والميكانيكي لتطوير الخامات الى سلع أكثر نفعاً، فتضافرت الجهود الإنسانية في نشاط إنسان طبيعي إنتاجي متكامل.

## مجتمع القرآن ـ مجتمع انتاجي

وهكذا نرى أن المجتمع الذي يدعو إليه القرآن ويبشر به هو مجتمع الإنتاج والعمل، إذ ما ينفك عن الحث للعمل والإنتاج والتدبر في ملكوت السماء والأرض وإستغلال ما جاء في ذلك الملكوت من خيرات ولا نرى آية واحدة تحث على الإستهلاك اللهم إلا الإقتصاد فيه والإبتعاد عن التبذير والإسراف لأن المبذرين كما قال اخوان الشياطين.

وعليه فان المجتمع القرآني هو مجتمع العزة والقوة والاعداد لها بشتى السبل والوسائل... مجتمع العلم والإيمان... مجتمع القوة المادية والروحية ولكن ونحن في هذا الصدد نرى ضرورة تحديد النشاط البشري في المجتمع القرآني وكيف يركز القرآن على النشاط الذي يعزز قوة الأمة المادية والروحية وهكذا يمكن أن نضع ملامح محدده للنشاط البشري ضمن الأطر التالية.

**أولاً:** المجال العلمي والبحث العلمي فهذا المجال ركيزة أساسية للمجتمع القرآني القوي كما راينا وبدونه لا حياة مادية للأمة ولا حياة روحية لها.. لأن فيه تكمن طاقة العلم... وطاقة الإيمان .

**ثانياً:** المجال الزراعي وهذا المجال اكثر من ضروري لأنه ينطوي على أعمال عظيمة في الحقل، تعامل مع الأرض والماء والرياح وظواهر الكون الأخرى إنه الإنتاج من أجل الحياة.. ولكون هذا المجال من أهم المجالات... رأينا كيف يركز القرآن في آياته على ذلك وحثه علي زراعة الرمان والزيتون والنخيل.. ألخ.

**ثالثا:** المجال الحيواني وهو بحق كما رأينا... من أعظم المجالات التي تعزز كيان الأمة وسنرى أهمية هذا المجال يوما بعد يوم حين تصرف الأموال الطائلة من أجل إستيراد منافع الحيوان من لحوم وألبان وملابس وجلود... إلخ.

وكلها وللحق ذكرت في القران بآيات ناصعة لا تحتمل اللبس أو الغموض وهو الذي رأيناه فيما سلف.

ويبقى المجال الأهم وهو المجال الذي لا يتأتى إلا بوجود المجالات الأخرى المذكورة.

**رابعاً:** المجال الانتاجي: فحين تزدهر الزراعة وتكثر خيراتها وتزيد عن حاجة الناس لا بد ـ بعد ذلك ـ من القيام بعمليات الإنتاج والتخزين والتحوير والتطوير، فالسلعة التي لا

تؤكل كلها اليوم لا بد من تخزينها بطرق علمية من أجل الإستعمال في الغد وهذه سابقة مذكورة في القرآن حين لاحت بوادر القحط في أرض مصر كان قد أشار يوسف للعزيز بتخزين الحبوب في مخازن خاصة تنفع الناس حين يأتي اليوم العصيب... وفعلاً أنقذ الناس من مجاعة محققة وما ينطبق على السلع الزراعية ينطبق على منافع الحيوان والبحر والأرض وكنوزها... وغير ذلك من مسخرات الكون.

وهكذا نرى أن القرآن يحدد ملامح المجتمع المثالي القائم على الحركة والعمل والنشاط ولا نرى آية واحدة تدعو للكسل والاستهلاك .. والمتاجرة بالأموال وكنز المزيد منها وهو الذي نراه في مجتمعاتنا هذه الأيام تركنا الزراعة والأرض وتحولنا إلى سلع وزراعات الغير فاستوردنا الزيت والزيتون والعنب والرمان والنخيل... إلخ.

أهملنا الثروة الحيوانية وتحولنا إلى إستيراد اللبن والحليب واللحوم والأثاث... إلخ وكل ذلك مقابل الأموال ومزيد من الأموال وبذلك فقدنا عناصر القوة المتمثلة في الزراعة والصناعة والإنتاج الحيواني... إلخ.

ولا خيار أمامنا إلا خيار القرآن ومجتمع القرآن أنه مجتمع القوة والعزة والإيمان.

# ثانياً العنصر الروحي

**تمهيد:**

عندما رأيت ، ولكي نحقق النصر الحضاري علي قوى الشر والعدوان المتربصة بهذه الأمة، ألاّ مناص من اتباع معادلة القرآن المثالية لتحقيق ذلك النصر العظيم ـ تلك المعادلة التي سار على خطاها المؤسس الأول لدولة الإسلام، الرسول العظيم. والتي تسير في مسارين.

**الأول:** تحقيق الإنتصار الحاسم على قوى الشر والإستغلال والظلم في الداخل لتأسيس كيان متين وقاعدة صلبة للانطلاق إلى الهدف.

**الثاني:** فالبنيان المتين في الداخل والقائم على تحقيق إطار مادي متين يحوطه إطار روحي يتمثل بحرية الإنسان وقدرته العظيمة على الانطلاق ذلك فقط يحقق الانتصار الحضاري على القوى الخارجية وتلك هي أساسات المعادلة القرآنية التي سار على خطاها رسول الإسلام في ذاك الزمان، وتحقق له بعد ذلك أعظم انتصار... نعم وإن كنت أرى ذلك وأدركه كأحسن مخرج لنا من هذا المأزق المأساوي إلا أنني بنفس الوقت أدرك وأنا أركز على عناصر تلك المعادلة أنها لم تبق كما هي من حيث الكم والكيف، أما الكم فهو، للحق لصالحنا أما من ناحية الكيف فلا أخاله كذلك.

وكنت قد أدرجت العلم في سلم الأولويات من تلك العناصر لكون العلم هو الكفيل بتحقيق الطاقة المادية للأمة أو ما يسمى بوسيلة تحقيق النصر أما مثل هذا العنصر فكان منذ أربعة عشر قرناً وما يزال سلاحاً ذو حدين، ولكن بالدرجة الأولى كان ضرورة ملحة لشحذ السلاح المعنوي ساعة لم يكن مثل هذه الأهمية للسلاح المادي... وهو الذي نحن عليه اليوم... حيث تبقى للقوة المادية أهميتها القصوى في هذا السبيل طبعاً إلى جانب القوة الروحية المعنوية وحين، عالجنا هذا العنصر من المعادلة ، رأينا أنه يمكن بواسطة تحقيق الاهداف المادية من حيث القوة والتصنيع والإنتاج... الخ وبنفس الوقت تحقيق الاهداف المعنوية التي لا مناص منها لخوض معركة النصر الحضارية مع قوى الشر والطغيان وتلك الأهداف هي العناصر الأخرى للمعادلة وهي الحرية، الإيمان، الوحدة..

## مبدأ الحرية

وهكذا تتكامل معادلة النصر، بالعلم والحرية والإيمان والوحدة تلك العناصر الأساسية التي ما أن سار الرسول صلى الله عليه وسلم على خطاها حتى الحق أعظم هزيمة بقوى الإستغلال والطغيان في الداخل وقوى الشر والعدوان في الخارج: والعنصر الذي يهمنا هنا هو المتمثل بتحرير الإنسان وإطلاق صراحه من القيود لكي يتسنى له الفعل والعنصر هذا يتمثل بمبدأ الحرية.

والواقع أن هذا نتيجة حتمية للعنصر الأول حين القبول بالأهداف التبشيرية التي فجرهاوأبانها العلم فالعلم نور يضيء سبيل المظلومين والمستضعفين في الأرض وهم يناصرون الحق فيحرر قدراتهم من أجل ذلك النصر والحق، تبقى قضية الحرية قضية جوهرية عبر الأزمان وإلا لما أفرد لها الإسلام جل هذا الإهتمام الذي برز واضحا ساعة بزوغه.... كيف لا وهي تطلق سراح قوى الإنسان المفترض أن تكون، فاعله وفعالة في هذه المعركة الحضارية.... كمثل تلك المعركة الأولى كيف لا أيضاً وجل المعادلة تعتمد في تخطيطها على الإنسان وقدراته الأمر الذي نرى معه ألا مناص من تحقيق حرياته الأساسية أولاً وقبل كل شيء وتشمل.

أولاً: الحرية الدينية أو حرية الإعتقاد ﴿**لاَ إِكرَاهَ فِي الدِّين**﴾ هذه أول إشارة إلى حرية الإنسان في الإعتقاد وهناك إشارة أخرى ﴿**فَمَن شَاءَ فَليُؤمِن وَمَن شَاءَ فَليَكفُر**﴾ يضاف الى ذلك قوله تعالى ﴿**كُلُّ نَفسٍ بِمَا كَسَبَت رَهِينَة**﴾ وغير ذلك كثير... وكثير لا مجال هنا لحصره...

تلك هي أسمى صوّر الحرية... وإذا كان هذا هو الهدف من الحرية، حسب ما تراه شريعة السماء المثلى .... فمن باب أولى أن يتحرر الإنسان بمثل ذلك من الإعتقادات الأخرى التي أهلكت قواه ووضعته في قيود الأساطير والألغاز والأشباح... إلخ. فالحرية التي تسمح بها السماء كيف لا تسمح بها شريعة الأرض....؟؟

وإن كان هذا الدين ينادي بالحرية والتحرر الديني من كل القيود والوثنيات فإنما يقصد بالدرجة الأولى إلى إعادة الإنسان إلى فطرته الأساسية. الأمر الذي لا يتأتى إلا بغسل الأدمغة من الترهات والمتاهات الفاسدة، ليتسنى لها ـ للأدمغة ـ بالتالي القبول بالفكر العقائدي الجديد الآتي من السماء.... إذ لا يعقل أن يرسخ مبادئ عقائدية جديدة قبل أن يهدم تلك

العقائد الزائفة لأن في هدم الزائف من العقائد أو قل الأساطير التي كبلت الإنسان طويلاً، عودة بعد ذلك إلى الفطرة الإنسانية، التي فطر الله الناس عليها، بعدها يكون التوحيد بالله لا غير، أي الإنطلاق من السلاسل الوثنية والخلوص في العبادة لله وحده.

بدون قهر أو إجبار فقط بالتلقائية، والمعطيات الطبيعية الموصلة للنتائج الطبيعية، هكذا خلق الله، ولا تبديل لخلقه ﴿**فَأَقِم وَجهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً، فِطرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيهَا لاَ تَبدِيلَ لِخَلقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ**﴾ [الروم٣٠] .

ثانياً: الحرية الفكرية أو حرية الفكر والرأي:

حين تنتهي القيود الوثنية الأخرى التي كانت طارئة على فكر الإنسان تحت وطأة التراكمات والغثاثات التي شاركت في تكبيل فكر الإنسان عن الوصول إلى الحقائق الطبيعية للحياة بعد ذلك يتحرر العقل من قيود ه ليبدأ فترة من الإنطلاق لن توصل الإنسان إلا إلى الحقائق ولا شيء غير الحقائق... إن كانت مادية فلها وإن كانت روحية فلها أيضاً.

والحق، قلنا الكثير عن هذا البند ونحن نعالج العنصر الثاني وهو العلم، من عناصر المعادلة ولكن لا بد أن نؤكد أن الذي فطر عليه الإنسان بالطبيعة يلقاه مؤكداً وبالنص في أعظم كتاب، حين يقول له ﴿**إِقرَأ.... بِاسمِ رَبِكَ...**﴾ فإلى هنا أقف خاشعاً ولا ازيد، فهذه فيها اسمى ايات الحرية في العلم والقراءة والفكر الأبدي... المتحرر.

**ثالثا:** الحرية الأساسية.

قال تعالى ﴿**وَأَمرُهُم شُورَى بَينَهُم**﴾

هذا هو المبدأ الديمقراطي االسليم الذي لا يضاهيه مبدأ على الإطلاق ولا أعرف سبباً حقيقياً لتعطيل هذا المبدأ القرآني... فحين تكون الأمة في حالة سلم... فمن الأفضل أن يتخذ القرارات التي تندرج ضمن هذا الإطار، كل الناس إذ لا بأس من مشاركة جميع فئات الشعب بإتخاذ هكذا قرارات، فإن كان من خطأ فالخطأ يكون من الجميع... ونتيجة الخطأ لا بد أن يطال الجميع أيضاً... فإن كان الجميع يخطيء فمن باب أولى أن يخطيء الأفراد كل على حده... فاحتمالات الخطأ في القرار الفردي هي اكثر منها في القرار الجماعي الشعبي الذي ينبجس من مبدأ الشورى علماً أن الشعب لا يخطيء... وقس على ذلك في شؤون الحرب وحالاتها وأيامها وإن كان من انتصار فالأفضل أن يشارك فيه الجميع وإن كان من هزيمة فالأفضل أن يتحمل مسؤوليتها الجميع رغم أن الهزيمة محتملة في

القرارات الفردية اكثر... الحقيقة لا أريد أن أتفلسف في الأمر ـ لأن الأمر واضح ـ جلي ويُعرف بالفطرة أو بالطبيعة وتلك السمة الأساسية لمبادئ القرآن، وإن كان من شيء غير ذلك فهو من تزييف الإنسان.... شأنه في مبدأ الشورى شأن الكثير من الأشياء التي طالها التزييف...

**رابعاً:** الحرية المادية أو تحرير حاجات الإنسان

تبقى دائما الحقيقة الأساسية وهي المعطيات الطبيعية تؤدي إلى النتائج الطبيعية وقد قلت فيما سلف إن المشاركة الطبيعية للإنسان في الإنتاج الطبيعي لا بد أن تحقق له الأكتفاء الذاتي ومن ثم للمجتمع وكذا للدولة فما الأفراد إلا أعضاء المجتمع وأساس الدولة...

والحق، لا يعقل أن يطلب الأفراد تحريراً لحاجاتهم وهم بمنأى عن الفعل الموصل لذلك لأن الأمور غير الطبيعية سينعكس تأثيرها على حرية الإنسان فإن جاءت حاجات الإنسان من نتاج عمله أو عمل غيره بالتبادل المنفعي تحققت حرية الأفراد في حاجاتهم المادية وإن لم يكن كذلك فستظهر القيود المادية إن لم تكن من الداخل عبر قوى الاستغلال والإحتكارات المحلية... الخ. فستكون عبر تكبيل الدولة ككل من قبل الإحتكارات العالمية. هذه أمور علمية لا تحتاج إلى كبير مناقشة ولكن إن كان من جهد يبذل في هذا المجال فإنه يتم عبر العودة إلى السلوك والنشاط الإنساني الطبيعي الذي لا يتأتى ونحن على هذه الحالة إلا بالتثقيف والتوجيه النوعي لمثل هذه الأمور...

والقضية الأساسية التي يجب أن نفهمها دائماً أن الأمور كلها دائماً تتشابك بحيث تؤثر سلباً أو إيجاباً على بعضها البعض فإن نقصت حرية الإنسان المادية، وتلاشت حاجاته أو إختفت أو كان الثمن الذي يدفع مقابله باهظاً فلا شك أن ذلك يمثل بداية القيود والسلاسل وتعطيل الحريات الأخرى ولا أرى تعبيراً شاملاً لذلك إلا هذا التعبير «في الحاجة تكمن الحرية».

حقاً، إن الحاجة ولا سيما في هذا الزمان، وهو الزمن المادي البحت تكمن فيها حرية الأفراد والشعوب وبشكل لم يسبق له مثيل... كم من الأمم والشعوب المقهورة لا لشيء إلا لسبب حاجتها لغيرها من الشعوب الأخرى أو حكوماتها.

ولا أكون مغالياً إذا قلت، أن الحاجات الأساسية للأفراد أوقل للشعوب ستكون المحك لسعادة الإنسان في هذا الزمان.. كيف لا. وأعظم الحروب وما تحمل من سياط العبودية

والإستعمار كانت أساساتها لعاب المستعمرين وهو يسيل بغزارة على ماديات الشعوب وحاجاتهم... كما هو على النفط أو الحبوب أو المعادن أو غيرها.

## القـضية الإيمانية

وقضية الإيمان هذه، متشعبة، وإن كان أساسها واحد وهو التوحيد بالله وأعلاء كلمته على ظهر الأرض، وهذه القضية الإيمانية قلنا أنها لا تتأتى إلا بسبل ووسائل عقلانية وطبيعية ولكن جوهر ذلك لا بد أن يتمحور حول الإيمان بوجود قوة عليا يدها فوق أيدي الطغاة، يهمها إنتصار الحق على الباطل، والايمان بتلك القوة ووجودها لا بد أن يتم بوسائل ـ ذكرناها فيما سلف ـ إما فطرية حين يسلك العقل سلوكا حراً وهو يتأمل في ملكوت السموات والأرض، حيث يدرك العقل بالتلقائية والفطرية وجود تلك القوة العليا فإن لم يكن بذلك، فعن طريق القرآن وإن لم يكن ذلك ممكناً أي في حالة إنكار القرآن جملة وتفصيلاً، وأنه فقط «من قول البشر» يمكن بوسيلة أخرى هى تناسق آيات الكون وآيات القرآن مع الجهد العقلي الحر... وهناك تبقى ظاهرة فوق كل الظواهر تصب في هذا السياق وهي آثار الأولين المنبثة هنا وهناك، فرعون مصر وآثاره، وكهف أهل الكهف، سفينة نوح، الأماكن المقدسة من مثل المسجد الحرام، والمسجد الأقصى وغيرها كثير مما ذكر في القرآن وما زالت آثاره موجودة على ظهر الأرض والذي ذكرناه من آثار ثبت فعلا وجوده مما يحكي قصص الأولين ولا سيما الطغاة منهم ﴿**قُل سِيرُواْ فِي الأرضِ فَانظُرُواْ كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبل**...﴾ أي إبحثوا عن الآثار المتبقية من أخبار وحياة الأولين الذين هلكوا. وحتى الذين سادت حضارتهم ما زالت باقية آثارها في مكة والقدس وشتى الأماكن الإسلامية الأثرية الأخرى.....

على آية حال ناقشنا القضية الإيمانية مع القضية العلمية جنباً الى جنب والمحنا بالدليل القرآني الذي لا يضاهيه دليل الوسائل الناجعة للوصول إلى الحق اليقين والإيمان القاطع إن في النظر في آفاق النفس أو في ملكوت السموات والأرض عبر القرآن والعقل والكون... أو آثار الأمم والقرون الأولى.

ولكن ما الذي يفيدنا من ذلك الإيمان، في معركتنا هذه نحن نريد إمكانيات مادية، تنفع لمثل هذا العصر إذ لا شيء غير المادة قادر على حسم الصراع.... هذا حق... ولكنه ليس كل الحق. فالمعادلة المادية هي وللحق لصالحنا الكم البشري موجود، المال أيضاً موجود،

السلاح أيضاً موجود إذن ما الذي ينقصنا... في هذه المعركة الحضارية.

أنا أرى العنصر الذي ينقصنا هو العنصر الروحي الذي به إنتصر الأوائل... وليس العنصر المادي الذي نملك من إمكانياته الكثير.

وملخص القول، أي جدوى من مثل هذه الكلمات التي نقولها حول نجاعة الإيمان، والقوة الروحية... الى غير ذلك من إصطلاحات معنوية.

الحق أن الذي نبغيه ونرتجي له أن يسود، هو الترجمة الحقيقية لذلك كله وتثوير الطاقة الروحية من أجل إنتصار الطاقة المادية.. ولكن كيف؟؟

الحق ، والحق يقال، نريد أن يتلمس الإيمان طريقه إلى اليد والأصابع... فلا تسرق.. لا اليد ولا الأصابع ونريد أن يتلمس الإيمان طريقه إلى العين، لتغض الطرف عن كل ما يشين من القول أو من العمل إن كان كفاح ذلك الشائن من القول والعمل لا يتأتي إلا بغض النظر فإن لم يكن كذلك، فباعطاء اشارة رادارية إلى العقل ليبدأ التخطيط والفعل الدفاعي ومن ثم المقاومة...

نريد أن يتلمس الإيمان طريقه إلى اللسان فلا يذوق الرذائل من الطعام أو الشراب، فإن لم يكن فبالتمييز بين الخبيث والطيب، لاتخاذ القرار المناسب بشأنها.

ومثل ذلك بالنسبة للآخرين فتكون جهاز إنذار مبكر تكتشف سبل ومصادر الخير والشر فتنذر من الشر وتدعو الى الخير وتنبه إليه.

نعم، نريد أن يتلمس الإيمان طريقه إلى القلب مركز الفعل،ليوجه أجهزة الجسم بالعمل كما هو مفترض أن يكون بعد تدفق سيل من المعلومات الواردة من الحواس عن جوانب الخطر ومكمنه والعمل بما يريده العقل الواعي لا كما تريده الغرائز والعواطف والنفس الأمارة بالسوء.

نريد الإيمان أن يترجم إلى سيل من الأعمال العقلانية الواعية ـ بحقيقة الأخطار... فإذا كان محل الأعمال وموضوعها مادياً كان فعلها أيضاً ماديا ولكن بوحي من القيم والمباديء القرآنية وهديها وبذا يكون فعل الإنسان بعلم وإيمان.

المزارع يكد ويكدح ويحصد ويزرع باخلاص وصدق وإيمان ووعى بما يعمل ليكون ثمار عمله وحصاده شاملاً لقضية العلم والوعي والإيمان.

والفلاح إن هو أدرك حقيقة عمله ومغزاه المادي والروحي أخلص لذلك العمل وأفنى عمره من أجله لأنه يدرك الحقيقة كلها ـ حقيقة الحياة ومعنى وجوده فيها فيكون عمله نتاج الصدق والحرص والإيمان.

والمنتج في مصنعه يعمل بوفرة وفاعلية لا تضيع منه صغيرة ولا كبيرة ولا شاردة ولا واردة، يعمل من أجل الأبناء ومن أجل الوطن ومن أجل أبناء الوطن وليس من أجل حفنة من المال... لا أكثر.

ذاك فعل الإيمان وهو مترجم إلى سلوك قويم أساسه الحرص والإخلاص في العمل والإنتاج بنجاعة وفاعلية، وعليه فإن الإيمان يحمل المغزى الروحي بذات الوقت وهو يحمل الإنتاج المادي، في مراكز الإنتاج والعمل بوفرة وأتقان لأن سلوك المؤمن لا بد أن يدرك وهو يسلكه أنه يعمل أبتغاء مرضاة الله أولاً، ومرضاة الوطن والشعب ثانياً ومرضاة اسرته وذويه ثالثاً... نعم ذاك الإيمان الحقيقي في مراكز النشاط الأساسية.

وأما الإيمان حين يكون مترجماً إلى أعمال وسلوك نظيف في مراكز الإدارة والمسؤولية لا بد أن يكتسب نفس الأساسات السابقة من الصدق في العمل والحرص والمسؤولية الكاملة عن ذلك العمل ساعتها يدرك المسؤول انه ليس مراقباً من الناس فحسب ولكن مراقباً من الذي لا تخفى عليه خافية.

فحين يعلم أنه في ذاك الموقف من المسؤولية وفي ذاك الموقف من الرقابة، يكون عمله ناجحاً ومفيداً له ولغيره يوقف الظلم حيث يراه، ويمنعه قبل أن يراه فيسود العدل والأمن والسلام لأبناء المجتمع أفراداً وجماعات.

وهذا القول يطال المدير والرئيس والأمين لا بل ينسحب على كل ذي مسؤولية خطيرة كانت او غير خطيرة.

أما الإيمان في مراكز العلم والعلوم والتربية والإعلام يكون ثمرته الجيل القادم فكيفما تكون وسائل العلم والتربية تكون الأجيال، إن كان يحدوها الحرص والأمانة والإيمان تكون الأجيال ثمار ذلك الحرص والأمانة والإيمان .... وإلا فإن العكس هو الحصاد.

فالإيمان والعلم أخطر القضايا وأعز عناصر المعادلة لتحقيق النصر الحضاري لهذه الأمة ، كيف لا وقوام ذلك وثمرته القوة المادية والقوة الروحية، الصناعية والزراعية والانتاج.. مادياً.

يضاف الى ذلك صناعة الإنسان وقوامه المؤمن الواثق روحياً... تلك أهم عناصر المعادلة.

الصناعة تقوم على العلم والتخطيط لا الارتجال أو الإنفعال ويعزز ذلك الإيمان بالقدرة والثقة بالنصر.

وكذلك في الزراعة.... وكذلك في كل مراكز الإنتاج، العلم والإيمان فيهما ركائز وأساسات.

أما الإيمان في مراكز الخدمة العامة والوظائف وتسّير الأمور الإدارية والإجرائية. هي ايضاً ضرورة لتوفير الجهد والوقت على الوطن والمواطن. إذ لو لم يكن الإيمان رادعاً أو حافزاً، لتوقف النشاط الإنساني على عوامل مادية بحتة، إن أتت سار العمل ، وإن لم تأت تجمد وتجمدت معه القنوات الأخرى التي تتأثر بتلك الأعمال أو على الأقل انعكس على نفسية المواطنين الذين هم بالتالي يعكسونه على مواقع الإنتاج والعمل الأخرى.

وعلى ذلك نرى، أن الإيمان يترجم إلى قضايا حيوية لا مناص منها للمجتمع الإسلامي المثالي من السير على خطاها.

فالإيمان يمثل الصدق في العمل والأمانة في العهد والوعود والإخلاص في الجهد من أجل الدين والدنيا.

فالإيمان بالنسبة للمزارع الإخلاص في العمل وبالنسبة للمدرس رعاية التلاميذ وشحذهم إلى الجهد والإجتهاد.

والإيمان بالنسبة للطبيب التفاني من أجل الغير.

والإيمان بالنسبة للأب، رعاية أمور الأسرة وتربية الأولاد على الأخلاق الحسنة والسلوك الحسن.

وهكذا تكون الترجمة الحقيقية للإيمان، فليس الهدف إرضاء النفس بأمور مادية عارضة ولكن الهدف هو إرضاء الخالق في سلوك المخلوق، تلك هي الأمور التي نعوّل عليها في تحقيق الأمل المنشود.

## قضية الوحدة

حين يتخلص الناس من ركام الغثاثات وأمواج التضليل ووسائل التشويه الحضاري لا بد

أنهم واصلون بعد ذلك إلى الخط الطبيعي الذي يوحد ولا يفرق يجمع ولا يشتت لا في الفكر ولكن في الهدف والعقيدة، فتتحد القلوب على عقيدة واحدة وتتجمع العقول على فكر واحد وأسلوب في الحياة أيضاً واحد... الأمر الذي تتشكل معه أطر الوحدة في شتى مناحي الحياة لا فكراً بل وسلوكاً وتندحر الأيدولوجيات الوافدة إلى الوراء لا تلوي على شيء تجر ذيول الخيبة والهوان والفشل والخسران.

فيقف الحاكم والمحكوم جنباً إلى جنب وتتساوى الناس في الحقوق والواجبات.

وتزخر ثنايا الأمة بالعمل والنشاط يحدوهم الأمل بتحقيق الآمال العظام والعودة إلى المجد الخالد والحضارة الخالدة التي تؤسس إلى كيان واحد فتندحر الكيانات المتعددة.

كيف لا وقد تحرر الإنسان وأنطلق الفكر من قيوده الدينية المشوهة وارتسمت خطى الطريق أمام ناظريه بافق القرآن ومبادئه فيحكم بالشورى ويقسّم بالعدل وتنتهي قيود الظلم والاستغلال، التي كثيراً ما ساهمت في تزييف الحقائق الأمر الذي ساهم في رسم الحدود والفواصل بين أبناء الأمة الواحدة.

وينضوي الجميع تحت لواء واحد وعقيدة واحدة وكيان واحد ، أساساته واحدة، أنها مباديء وأساسات القرآن ا لتي ارتكزت على مباديء العدل والمساواة والحرية....

فينطلق الفقير مع الغني إلى مراكز العمل ومراكز الإنتاج وإلى أماكن العلم والعبادة كما يساعد علي قيام الأطر الإجتماعية ذات المضامين العاقلة، الهادفة إلى وحدة اللحمة وهي تمارس العدل والمساواة وفي الحقوق وتأت المرأة على حقوقها ويأت الرجل على حقوقه لا ظالم بينهم ولا مظلوم ولا سيد ولا مسود، ولا عبد ولا معبود.

كيف لا، وقد تحدد مصير كليهما، بكلمتين اثنتين الله والإنسان تلك اسمى آيات الحرية والانطلاق فلا عبودية في القرآن إلا لمعبود واحد، فلا وثنية بعد الآن، ولا أوثان بعد وضوح الرؤية ومجيء شريعة القرآن المثلى...

فاقرأوا واكتبوا واعملوا وسيروا في الأرض كيف تشاؤن ولكن اعبدو الله ولا أحد غير الله ، حين تمارسون أعمالكم الحياتية وقمة ذلك يتجلى في قوله تعالى ﴿**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُواْ فِي الأَرضِ وَابتَغُواْ مِن فَضلِ اللَّهَ وَاذكُرُواْ اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُم تُفلِحُونَ**﴾.

تلك أساسات القرآن العظيم حرية في الدين وحرية في الفكر وتبقى بين هذا وذاك وحدة الفكر و وحدة الدين ووحدة الأمة في اللغة وبذلك يتشكل الإطار والمضمون

الوحدوي على الصعيدين المادي والروحي ولا عجب أن تكون منه تلك الومضات الروحانية وأن تترجم إلى فعل مادي يشذبه فعل روحي مضمونه القيم والأخلاق

ولا عجب أيضاً... أن ينتصر المستضعفون في الأرض وتثبت أقدامهم فيها ويؤسسوا أعظم مدينة على الإطلاق قائمة على أنبل حضارة وأقدس فكر الأمر الذي لهج به الصديق والعدو ومالبثوا يلهجون... الصديق متمنياً وآملاً بالعودة والعدو وهو يدرك ذلك يدرك مكمن الخطورة في تلك العودة إلى تلك الأمة.

فيشتت أو يحاول بشتى الوسائل والإمكانات، لئلا تتجمع وتتوحد الوسائل والإمكانات... إمكانات هذه الأمة ووسائلها.... لأنه يدرك حقيقة الأمر ويعلم سر هذا الخط المستقيم والصراط العظيم الذي يمثله.

إنه الصراط الذي يوحد جهود الأمة ويجمع شتاتها على فكر واحد وعقيدة واحدة..... ساعتها سيقف الجميع صفاً واحداً كالبنيان المرصوص وستزحف جموع الفقراء والمساكين والمحتاجين مع جموع الأغنياء سواء بسواء إذهم يدركوا حقيقة الأمر...

وستتدافع النساء مع الرجال كل يدلي بدلوه من أجل نصرة هذه الأمة، كيف لا، وقد حان ساعتها القطاف... قطاف المباديء وبذور الفكر الحضاري.. الذي شهدنا مثيله بعد سنوات معدودة من بزوغه الأول وإنشاء أعظم مدينة في التاريخ الانساني.

# اثر التجربة القرآنية في البناء الحضاري

## الإسهام الحضاري للعرب والمسلمين

للحق، إن السلف الصالح من العرب والمسلمين، كانوا قد أدركوا الاهداف الحقيقية، التي كان يرمي إليها القرآن وهو يدعوهم، للتحرر والانبعاث، إذ أدركوا أن تلك الدعوة كما هي ثورة على الشرك والإلحاد فهي ثورة على الجهل... وفعلاً حين دعاهم للخروج من ظلمات الجهل، إلى نور العلم والمعرفة، كانوا خير أمة لبت النداء، إذ شهدت البقاع الإسلامية، تقدماً ملحوظاً على أصعدة العلم والمعرفة، ففي الوقت الذي كانوا فيه ينهلون من معين القرآن الذي لا ينضب، فكراً روحياً عقائدياً، كانوا بذات الوقت قد ولجوا أبواب العلم والمعرفة بشتى أنواعها، حال ثبات دولتهم واستقرارها.

فكان عهد الإسلام، بحق، عهد الإشراق والتحرر والانبعاث الحضاري، الذي يمتزج فيه الفكر الديني ـ الروحي، بالفكر العلمي الحياتي وبحرية لم يسبق لها مثيل لا في الدين والإعتقاد بل في العلم والمعرفة أيضاً ولم نسمع قط أي حادثة من مثل الذي حدث مع جاليلو حين قال الأرض كروية،أو حين قال الأرض تدور..

أي أن الإسلام، حين جاء، أطلق العنان لفكر الإنسان لأن يعمل، ويعمل، دون قيد أو شرط، إلا شرط الإيمان...

وأما الذي هو لصيق بالإسلام والمسلمين هذه الأيام من التخلف والتقهقر أو أنهم لم يسهموا بمسيرة الإنسان العلمية، فإن ذلك ليس إلا محض إفتراء، القصد منه التشويه والتحريف وقلب الحقائق، لأن فضل العرب والمسلمين على العلم والعلوم بوجه خاص والحضارة الإنسانية بوجه عام يسبق فضل أولئك، الذين يفترون الكذب على هذه الأمة.

وما أحرزوه من انتصارات في هذا المجال ليس إلا تتمة للذي أنجزه العرب والمسلمون، فلولاهم لتأخرت نهضة أوروبا ثلاثة أو أربعة قرون أخرى ويمكن إدراج فضل العرب والمسلمين على العلم والحضارة في مجالين.

## أولاً في مجال الترجمة

كانت البداية تكمن في الترجمة لمؤلفات أبقراط وأرسطوا وجالينوس في زمن هارون الرشيد، وأسس أبنه المأمون كلية لترجمة الكتب الأجنبية، كما أرسل البعوث إلى القسطنطينية والهند للحصول على نسخ من أهم المؤلفات وترجموا مؤلفات اقليدس

والمجسطي وكذلك كتب أبو لونيوس وأرشميدس وتبع هذا النشاط بحوث علمية مبتكرة.

هكذا قال كراوذر في كتابه صلة العلم بالمجتمع.

من ذلك نرى أيضاً أن فضل العرب والمسلمين لم يقتصر على الترجمة والنقل، لا بل، تعداه إلى الابتكار والإضافة.. والترجمة ليست عيباً بل هي وسيلة من وسائل العطاء الحضاري، لا يكتمل بنيان الحضارة الإنسانية إلا بمثل ذلك العطاء وغيره.... كيف لا، والبنيان الحضاري الإنساني كل متكامل لا يتجزأ، وهذا المبدأ أصلاً مبدأ قرآني لأن القرآن جاء للناس كافة، فكيف لا يكون العلم للناس كافة، وإن عبنا على الغرب في شيء «ضمن هذا الإطار» لا لأنه، سبقنا في مجال العلوم ولكن لأنه ينكر فضلنا في هذا الإطار... لا بل يظهر في دعواه روح الإستعمار والتعنت والصلف، البعيدة عن روح الإسلام والتي يتجلى فيها أحسن المبادئ، وأجّل القيم.

فمثلاً الإسلام لا يفرق بين علم اوروبي أو أمريكي أو يوناني... ألخ.

وإلا لما قال رسول الإسلام «أطلبوا العلم ولو في الصين» فمهمة المسلمين مهمة حضارية متكاملة. علماً وخلقاً ورسالتهم رسالة عالمية ، تأخذ وتعطي، دون إستغلال أو ظلم أو نكران هذا هو الفرق الحضاري بين أمة القرآن وسائر الأمم فحضارتنا متكاملة، أخلاقية تعكسها آثارنا الباقية في الأندلس وحضارتهم ناقصة تفتقر للأخلاق الأمر الذي يبدو جلياً من اثارهم في فيتنام وفلسطين واليابان...

ومهمة الترجمة، تلك كان لا بد منها، للاستفادة مما أبدعته الأمم أو ابتكرته... فتراث الإنسانية، العلمي، يصب دائماً في إطار واحد هو تحقيق سعادة الإنسان، فما بالك حين يمر بمرحلة االتشذيب الإسلامي فلا شك أن النفع سيعم الجميع وبدون إستثناء الأمر الذي نوهنا عنه سابقاً وهو أن العلم بدون إيمان لا شك أنه لن يخدم الإنسان في المدى البعيد، بقدر ما يخدم حفنة مستغلة للعلم مات لديها وازع الإيمان والخلق.

والمهمة الحضارية للإسلام ضمن هذا الإطار مهمة تلقيح الحضارة بمباديء وأخلاق الإسلام، لتصل بالتالي إلى ما يمكن أن نطلق عليه بالحضارة الأخلاقية «أي حضارة العلم والأخلاق».

هذه هي الحضارة الإنسانية الحقيقية ، وما عداها فهي حضارة الإستعلاء والإحتواء والقتل والحروب.

لذا، كما قلنا، كانت عملية الترجمة، ضرورية كما هو التلقيح أيضاً ضروري بين

حضارات الأمم، ليتم بالتالي تطعيم الحضارة الإنسانية بشتى المعارف والقيم...

وهكذا كانت المهمة الأولى، هي الأخذ من حضارات فارس والهند والصين، واليونان، وترجم ذاك التراث الحضاري إلى اللغة العربية، للاستفادة منه بعد تشذيبه من الافكار المتطرفة أو الملحده، وأما مدارس الترجمة التي فتحت كانت الأولى «دار الحكمة» في القاهرة التي أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمي ونشطت حركة الترجمة بعد ذلك نشاطاً كبيراً دون تحيز أو اغماط لحقوق أحد فكان الهدف الملح آنذاك حفظ التراث الإنساني من الضياع، ناهيك عن الاثراء بالخلق والإبداع...

## ثانياً في مجال الخلق والابداع

ولكن هل بقي حال ودور الفكر العربي الإسلامي مقصوراً على الترجمة والنقل وإجترار الذي كتبه المفكرون من الأمم الأخرى والتي سبقتهم في هذا المضمار، كما يدعي الغرب...

اعتقد أنه من واجبنا هنا أن نميط اللثام عن حقيقة أولئك الذين أسهمو إسهاماً، بارزاً في آثراء الفكر الإنساني الحضاري الأمر الذي ما زال مذكوراً ومسطراً في بطون الكتب، يعلمه العدو قبل الصديق، ولكن لا بأس من كلمة حق عند غرب جائر، يعرف الحقيقة وينكرها قاصداً من ذلك الحط من قدر هذه الأمة، لحاجة في نفسه، وحاجته لا شك تتراوح بين استلاب الفكر العربي أو إحتوائه، لخدمة أهدافه السياسية والإقتصادية والعلمية.

ولن نطيل في هذا المجال، وحسبنا فقط الإشارة إلى أبرز المفكرين العرب والمسلمين الذين كان لهم قصب السبق في شتى مجالات الفكر الإنساني. خدمة بالنقل والترجمة والتوصيل تارة او ابتكاراً .... وخلقاً جديداً تارة أخرى.

وأما أبرز أولئك المفكرين الذين أثرو الفكر الإنساني في مجال العلوم الطبيعية، فهم على سبيل المثال، لا الحصر...

**الحسن بن الهيثم**، وهو رائد علم البصريات، الذي اعترف بفضله الكثير من علماء الغرب والشرق المحايدين وقد ترجم كتابه «**المناظير**» إلى اللاتينية، وكان بحق أول من وضع المنهج التجريبي على أسس علمية متكاملة تشمل الملاحظة، والتجربة والفرض العلمي، صحيح أن فرنسيس بيكون كانت له يد في هذا المنهج ولكنه كان متأخراً لا بل وناقصاً أيضاً، ويقول كراوذر «إن بحوث إبن الهيثم في علم البصريات هي الأساس الذي بني عليه روجر باكون بحوثه كما كان لها أكبر الأثر في بحوث ليوناردو وكبلر...

**وأما جابر بن حيان** الذي انكره الغرب. جملة وتفصيلاً واعتبروه شخصية وهمية بل وأنكروا إسمة أيضاً ليتسنى لهم إحتواء الفكر الذي أتى به، في مجالات الكيمياء، والبحوث التجريبية فكان بحق «أكبر كيميائي في العالم» ومثل ذلك بين علماء الكيمياء العرب.

ومن الأسماء التي برزت في هذا المجال أيضاً كان أسم **الرازي** الذي يعتبر من أكبر الأطباء في عصره لا بل أطلق عليه لقب «جالينوس العرب» .

ولم يقتصر جهده على الطب بل له أيضاً مؤلفات في الكيمياء ويقول عنه كراوذر في كتابه صلة العلم بالمجتمع «ومع أنه لم يكن في قدرة جابر على الإبتكار إلا أنه كان أكثر منه تنظيماً وهو أول كيميائي تكاد تخلو كتاباته من الغموض»

وله في الكيمياء كتاب «**سر الاسرار**» كما خلّص الكيمياء من الغموض والسحر معتمداً على الملاحظة والتجربة.

أما في علم الفلك: فقد برز إسم **البتاني** الذي جمع «الجداول الفلكية» ووضع القانون الأساس لحساب المثلثات الكروية ويقول عنه الدكتور توفيق الطويل في بحث له عن الفكر العربي وتأثيره في الفكر الأوروبي، ما مفاده:

«وصفه الغرب بأنه أحد الفلكيين العشرين المشهورين في العالم ويستطرد فيقول، أن أبحاثه إستمرت مرجعاً لأوروبا حتى بداية عصر النهضة».

ويقول إن المسلمين قد توصلوا إلى خسوف القمر وكروية الأرض ودورانها قبل أوروبا بمئات السنين كما نجحوا في قياس محيط الأرض قبل غيرهم...

أما في الجغرافيا فيبرز إسم **الشريف الأدريسي** الذي قام برسم الكرة الأرضية كما له كتاب «**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**». وبقي هذا الكتاب مرجعاً في الجغرافيا قرابة ثلاثة قرون...

أما في مجال العلوم الرياضية، فلا بد أن يبرز إسم **محمد بن موسى الخوارزمي**. الذي وضع كتاب «**الجبر والمقابلة**» ويقول كراوذر في كتابه صلة العلم بالمجتمع عن الخوازمي «هو الذي أعطى لعلم الجبر إسماً ، وكان الواسطة التي نقلت بها الأرقام الهندية والنظام العشري إلى إوروبا» .

كما وضع الخوارزمي قواعد لحل معادلات الدرجة الثانية».

أما عن **ثابت بن قره** فيقول كراوذر بنفس الكتاب:

«شرح ثابت معظم كتب علماء الإغريق في الرياضة وترجم أبو لونيس وناقش فروض

إقليدس وكتب أقدم رسالة معروفة عن الساعة الشمسية التي يحتمل أن تكون إختراعاً عربياً...».

كما أن ثابت بن قره هو الذي مهد لعلم التفاضل والتكامل وسبق «ديكارت» في الهندسة التحليلية.

تلك هي أعلام بارزة في مجال الرياضة نوردها هنا للتذكرة، ليس إلا ـ ليعلم الذين في قلوبهم مرض أننا سبّاقون في وضع اللبنات الأولى لصرح الحضارة الإنسانية وأولى تلك اللبنات التي وضعها العرب والمسلمون كانت لبنات العلم وأساساته... وهناك أعلام وأسماء أخرى نورد منها **أبن خلدون** رائد علم الإجتماع، **وأبن البيطار** واضع كتاب «**المفردات**» الخاصة بالأدوية والأغذية أو ما يسمى «الجامع لمفردات الادوية والاغذية» وأما في الفلسفة فكان **إبن رشد** وقيل أنه مبتدع مذهب «الفكر الحر» وإن نسينا فلا يجب أن ننسى **البيروني** صاحب المؤلفات المتعددة في التاريخ، والفلك.. والجغرافيا... الخ وكذلك **أبن سينا** الذي يلقب «أبوقراط العرب» وله كتاب في الطب إسمه «**القانون**» الذي جمع بين القديم والحديث.

وكذلك **أبن النفيس** الذي كشف الدورة الدموية... قبل غيره.

## استلاب الفكر العربي الإسلامي

بغض النظر عن الحقد الذي كان يملأ قلوبهم وهم يسلبون العرب تراثهم وحضارتهم الأمر الذي قلل من دور العرب في الحضارة الإنسانية، إلا أنهم بنفس الطريقة التي بدأها العرب والمسلمون لإستقاء العلوم، ومن ثم الإثراء فيها والابتكار، كان الأوروبيون قد إستقوا العلم والفكر العربي الإسلامي، أي كانت البداية بترجمة التراث العربي الإسلامي إلى لغاتهم الأصلية، السائدة آنذاك، وهي اللاتينية.

وبذا انتقلت علوم الإغريق والرومان، التي ترجمها العرب إلى لغتهم العربية... نعم انتقلت إلى أوروبا على يد المسلمين وها هو كراوذر يقول في كتابه صلة العلم بالمجتمع: «إن علوم الإغريق كانت قد وصلت إلى أوروبا على يد المسلمين». أي كان لهم الفضل الكبير في حفظ التراث الإنساني الفكري، الأمر الذي سهل على أوروبا كما جعلها تسرع في الوصول إلَى ما وصلت اليه من تقدم وإزدهار علمي...».

ويقول كراوذر في مكان آخر من كتابه.

«ووصلت العلوم الإسلامية إلى أوروبا عن طريق أسبانيا العربية وشمال إفريقيا ولما

استرد الأوروبيون مدينة طليطلة عام ١٠٧٥م وجدوا فيها كثيراً من المخطوطات العربية وجموعاً كبيرة من اليهود والعرب والإسبانيين الَّذِينَ يعرفون العربية واللاتينية فأخذوا يترجمون كثيراً من المخطوطات العربية إلى اللاتينية وجاء كثير من العلماء من جميع أنحاء أوروبا ليتعلموا العلوم الإسلامية وليقرأوا الترجمة العربية للمؤلفات الإغريقية....».

ويقول في مكان آخر «... وفي سنة ١١٤٥ ترجم روبرت من مدينة شستر جبر الخوارزمي إلى اللغة اللاتينية تحت عنوان الجبر والمقابلة وأدخل هذا الفرع الجديد من العلوم الرياضية إلى أوروبا الغربية...». كما «وترجمت كتب إبن سينا في الطب وظلت مرجعاً رئيسياً مدة خمسة قرون».

وخصصت أوروبا للترجمة مدينتين الأولى كانت صقلية التي حكمها العرب لمدة قرنين من الزمان... كان عهدهم فيها عهد تقدم وازدهار والثانية في طليطلة حيث أنشأ رئيس الإساقفة فيها ديوانا للترجمة.

لترجمة كل ما تقع عليه أيديهم من تراث العرب وفكرهم الحضاري، منها ما هو بدافع الإستفادة ومنها ما هو بدافع الحقد والإجتثاث الحضاري للعرب والمسلمين وهكذا كان نقل التراث الفكري العربي ، الإسلامي إلى أوروبا بعد سقوط الأندلس، بأيدي الفرنجة، فكان النقل شاملاً للتراث العربي المترجم منه والمبتكر فالعلوم التي ترجمها ونقلها العرب من الصين والفرس والهند واليونان والرومان، كلها ما لبثت بعد سقوط غرناطة وصقلية أن تحولت إلى أوروبا هي وما أضافه العرب والمسلمون من علوم في شتى مناحي الحياة، حيث نقلت المخطوطات التي تحمل شتى العلوم وترجمت إلى اللغة اللاتينية وهي لغة أوروبا في ذلك الوقت وبمساعدة تلك العلوم المبثوثة في ثنايا تلك المخطوطات إستطاعت أوروبا أن تستعين بها لفترة أربعة قرون أو أكثر توطئة لنهضة علمية متكاملة، ما زالت تقطف ثمارها حتى اليوم...

يضاف إلى ذلك، ما حصلت عليه أوروبا إبان الحروب الصليبية حيث إستطاعت أن تسيطر على الكثير من المخطوطات العربية والإسلامية ليس هذا وحسب بل بدافع الحقد والضغينة شوهت الكثير من الحقائق حول أصحاب المؤلفات فهضمت حق الكثير منهم..... أو أنكرت أسماء بعضهم حتى اجتثت الفكر الحضاري الإسلامي من الأساس، بذا سهل عليها حكم العرب والمسلمين واستعمارهم فترة طويلة ـ من الزمن كانت خلالها تتحكم بكل شيء فكيف لا تؤرخ للفكر الإسلامي أو للمفكرين المسلمين والعرب بالطريقة التي تشاء حتى تضيع الحقيقة في ثنايا... زمن الضباب، وليس هذا غريباً إذ نسمع أن أينشنين

العالم الذري مثلاً ينسب إلى أنه عالم يهودي وفي بعض الأحيان ينسبوه الألمان إليهم وفي أحيان أخرى يدعي الأمريكي أو الأميريكيون أنه من بني جلدتهم وهكذا حصل مع جابر بن حيان ومع أبن سيناء ومع أبن خلدون فهذه السابقة الخطيرة قد إنتشرت هذا الزمان مع كثير من العلماء فكيف لا تحدث مع علماء العرب والمسلمين الذين تشوهت حقيقتهم من الغرب ومن الشرق كيلا تقوم لهم قائمة....

هذه هي البدايات الأولى للتقدم العلمي الحضاري الذي أحرزه الإنسان في مسيرته الطويلة، وقد بانت واتضحت ولا شك إسهاماتنا في ذلك، وها نحن بذلك قد برأنا أو حاولنا تبرئة ساحة العرب والمسليمن من التهمة التي تلاحقهم هذا الزمان وهي تهمة التخلف عن ركب الحضارة أو التوقف عن العطاء الحضاري تلك التهمة التي تلقفها الشباب العربي المسلم تحت وطأة الإستلاب الفكري أو الإحتواء الذي مارسه الغرب، من ساعة سقوط غرناطة أو قبلها وحتى اليوم، بشتى الأساليب بقصد، أو بغير قصد، عن طريق التبشير أو الحروب الصليبية أو التشويه الذي قاده المستشرقون وإن حصل مثل ذلك التشويه المتعمد فلا بد أن نعترف أن الكثير من مفكري الغرب قد اعترف بفضل العرب والمسلمين على حضارة الغرب وتقدمهم وتعالوا معنا نسمع البعض منهم إذ يقول:

«إن العرب في الواقع أساتذة أوروبا في جميع فروع المعرفة».

ويقول أرنست رنيان «أن العلوم والحضارة والآداب مدينة بأزدهارها وإنتشارها إلى العرب وحدهم طوال ستة قرون».

أما فون كريمر يقول «إن أعظم نشاط فكري قام به العرب يبدو جلياً في حقل المعرفة التجريبية».

وقال جوستاف لويون: «... إن جامعات الغرب عاشت خمسمائة سنة تكتب للعرب خاصة، وإن العرب هم الذين مدّنوا أوروبا في المادة والعقل والخلق».

ويقول «بلاس أو ليري»: «لو أزيل العرب من التاريخ لتأخرت النهضة الأوروبية في أوروبا بضعة قرون، فقد علّمت الأمة العربية الغرب بعد أن أيقظته خمسة قرون أو ستة وحتى أواخر القرن الثامن عشر كانت مؤلفات إبن سيناء لا تزال تناقش في جامعة مونبليبه بفرنسا».

وماذا يمكن أن نقول بعد أن «شهد شاهد من أهلهم» بأننا أمة ذات علم وحضارة.... ألسنا بعد ذلك الأمة الجديرة بالنهوض لتأخذ مكانها الصحيح بين الأمم وحضارتها تأخذ وتعطي دون حيف أو ظلم أو جور ساعتها يمكن أن نقول لا يصح إلا الصحيح.

## صدر للمؤلف

١- المرأة في ظل شريعة القرآن. الطبعة الثانية/ دار البشير/ ٩٧.

٢- منهج القرآن في الاقتصاد./ الطبعة الثانية/ دار البشير/ ٩٧.

## مخطوطات تحت الطبع

١- الله يتجلى في عصر الطاقة.

٢- العقل محاولة لفهم عصري.

٣- أسس الحوار الإسلامي المسيحي.